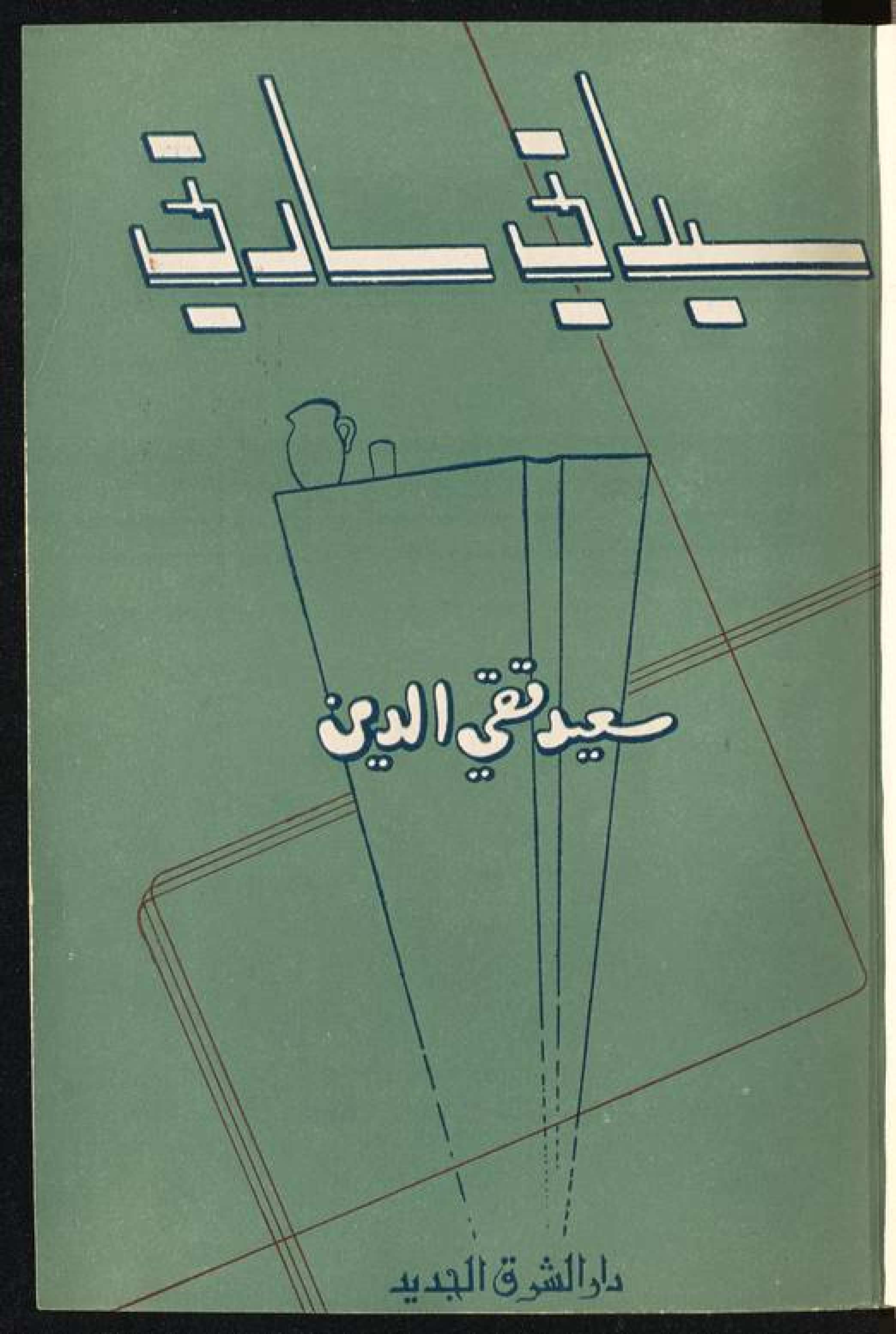


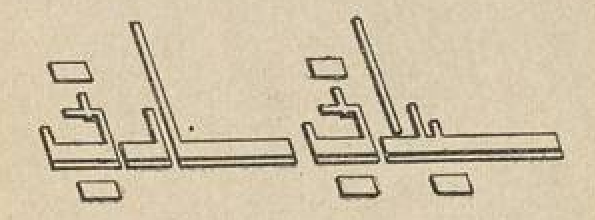
سيداتي سادتي
سعيد تقي الدين
دار الشرق الجديد

سيداتي سادتي

سعيد تقي الدين

تصميم الغـلاف
للفنان عون ممتاز

سعيد تقي الدين



دار الشرق الجديد

الطبعة الاولى ، بيروت ، كانون الثاني ١٩٥٥

كلمة التعريف

لم استطع ان انطق ، مع ان فمي كان غير مطبق . وراح يقصف اذني بمحاضرة ختمها بقوله : « نعم ان هذا ضروري ، ولكن من الواضح ان ليس في قدرتك دفع ثلاثمئة دولار » . ثم عاد فمزق بعينيه اثوابي العتيقة من جديد .

ولقد كنت في حياتي ، مراراً كثيرة ، هدفاً للؤم في الكلام والنظرات ، غير ان كلماته هذه ونظراته سجلت في مضمار الخسة رقماً قياسياً جديداً .

كان ذلك في شهر نيسان من سنة ١٩٤٥ في « مانيلا » عاصمة الفلبين . وكان المحاضر الدكتور « كروس »

يطوف بين اسناني فيما انا فاتح بوابة فمي . ونحن كنا قد نجونا من جهنم حرب احتجنا خلالها الى كل شيء : الى المال ، الى الطعام ، الى معجون ينظف الأسنان وفرشاة . فأصبح عاج اسناني بما انبث فيه من تفتت وفساد كأنه النظام السائد في لبنان .

فلما زرت الدكتور « كروس » أراد ان يتصيد الثلاثمائة دولار فتحدى كبريائي بكلامه مشيراً الى ان اسناني كلها يجب ان تغادر فمي .

وما كنت لأعترض لولا حنين للعودة الى بلادي ، وعزم على ان اقتلع نفسي من مغتربي من غير ان تقتلع اسناني من فمي . فلقد كنت أتحرق على ان أرجع لأقوم باعمال كبيرة احدها الخطابة .

وليست الأسنان كل الخطابة ، ولكنها بعض العتاد . لذلك عصيت الطبيب — وكان غير صادق — ورجعت الى وطني متوهماً ان في فمي وقلبي معدات المنـــابر مستكملة فكان كتاب : « سيداتي سادتي » .

ولكن ما الخطابة ؟

في رأيي انها اقناع أو اقتلاع .

فالخطيب الناجح هو الذي يمحو من افكار مستمعيه ما يود ان يقتلع ، أو هو الذي يغرز في اذهانهم ما يرغب ان يبشر به . وما هو بالناجح من سرى له صيت انه « خطيب مفوه » عظيم من غير ان يفوز منهم بغير الاعجاب .

وان النـــاس متى اجمعوا تتدنى نفسيتهم فتدنو الى الغريزة

الحيوانية فلا يعود بالصعب على من تخدر ضميره ان يطلق من رئتيه ارياحاً تلولب فراشة لسانه بسرعة تثير عواصف التصفيق . ومن كان هذا همه سهلت مهمته فنشر امام النظارة قوس قزح يبهر أو وضع في ايديهم مسابح للتسلية ، أو بث في القاعة مخدرات من دخان الأفيون .

وما هو بالعسير على من يريد ان يبحث الخطابة ان يأتي بمختلف الوصفات والتعاليل وقد تكون كلها صادقة أو كلها كاذبة. لذلك اقتصر الكلام على اختباراتي الشخصية وما علمتني التجارب على المنابر وما درست على الجماهير .

فاني قبل ان ألقي الخطاب أتحرى ابداً ان أزور المكان أو القاعة حيث دعيت الى الكلام ، فما أبقى غريباً تعشني الرهبة في يوم الحفلة . وللمكان علاقة بالخطاب خفيّة لا أقدر ان أصفها ولكنها موجودة .

وأجهد ان لا اجلس على المنبر مواجهاً الجمهور قبل القاء الخطاب . هكذا يبقى في النظارة تشوّق للمفاجأة الجسدية التي تجي اذا ما استعرضوا الخطباء على المنبر قبل ان يتناوبوا الكلام.

وينبغي ان يُحترم الفن المسرحي . فأنا بدين طويل ، اذاً فاني ابداً أحرص على أن يكون امامي طاولة تحجب ضخامة جسدي حتى لا يشرف على الجمهور الا الرأس والصدر . ولو اني قصير لرقيت ما يجعلني أطلّ على الجمهور فارعاً .

وان اكثر حفلاتنا تزدحم بالخطباء ؛ فزملاؤك على المنبر يخلقون جواً يلائمك او يزعجك . فاني قبل ان أقبل دعوة ابداً

أنثبت من رفقائي مَنْ هم . وليس من رفيق أشد خطراً على الخطيب من الخطيب الشاعر ، فموسيقاه ابداً تطمس نثر الكلام . فاجهدْ ان لا تعتلي منبراً عليه شاعر .

اما الموضوع الذي يجب ان تطرقه فهنالك آفاق لا تحدّ . انها تجارب الحياة ، وصفو الدراسات ، وخلجات القلب ، ونداءات المجتمع ، وكياسة المناسبات – كلها تفرض وتوحي .

واما صياغة الكلام فيجب ان تتوافق مع المعاني وتتموسق مع الأنفاس . أنا قصير النفس فعباراتي بحكم الطبع قصيرة . هذا ما لا ينتبه اليه الكثيرون ، إذ هم يدبجون خطبهم ، لا فرق بين تركيبها وبين صياغة مكتوب تعزية أو مقال في جريدة .

وأهم ما في صياغة الخطاب وضوحه وتبلور معانيه في كلمات نافذة حتى ليفهمه كشّاش الحمام ويستهوي اساتذة الجامعة . ويجب ان يكون وحدة ، ليمسي رسالة . ومن المباح بل من المستحب ان تلجأ الى صناعة التجميل وحيل البيان ، فلا بأس من سجعة بعد سجعة . ومن المحتم ان تشرئب اللغة بنهوض الفكرة ، وتمتدّ الكلمات حين استثارة العاطفه . والترجيع – سرّ اكثر فنون الأدب – يجب استعماله في الخطابة ، فإنما الخطابة هي احد فروع المسرحية .

والالقاء كيف يجب ان يكون – قراءة ، أم بعد حفظ ؟ .

يقول لي الاستاذ انعام رعد ، وهو ، في رأيي ، اليوم قيدوم الخطباء في لبنان ، انه ان دوّن خطابه اعياه القاؤه . فهو يرتجل افصح مما يقرأ . لذلك اعتقد انه من الصعب ان نطلق قاعدة تنطبق

على كل الخطباء . وبعد فالخطابة فن لا قدرة لنا على ان نقيّده او نقوننه . للنابغ - انعام رعد مثلاً - ان يقف على قدميه ويطلق لسانه بالفصيح والمقنع والطريف . ولكن سائرنا ما أُعطوا هذه المواهب . والمعترف به ان افعل انواع الالقاء هو ورقة تقرأ منها ولا تقرأها . وانت تقرأ منها اذا استظهرت بعضها لا كلها . فلا مفر من التمرن على الالقـــاء طويلاً قبل الصعود الى المنبر . ولكن ان يتملك الخطيب كلماته ويسيطر عليها بحيث يبغبغها ، فلا اجادة حينئذٍ في الالقاء . اذ يصعب على الكلمات ، ان لم تفعل في نفس القائل ، ان تفعل في نفس السامع .

والنكتة ؟

هذه لا يصح ان تأتي الاّ في البداية . ولا بأس ان ينتهي بها الخطاب . امّا ما بينهما فمن الخطر ان يتفكه بنكتة أو يتزين بطرافة . والنكتة على المنبر هي اكبر مغامرة ، خصوصاً وان مكانها صدر الخطاب . وليس من منظر أدعى للاشفاق من رجل فاه بين جمع ، بما توهمه فكاهة ، وعجز عن استثارة ضحكة او ابتسامة . خلّ عنك ان حسبوا «النكتة» سماجة .

ويكاد يكون من المستحيل التنبؤ بتجاوب الجماهير . فلقـد سمعتهم يقهقهون بعبارة حسبت انها توحي كل شيء الاّ الضحك ، ورأيتهم يستقبلون بالصمت ما توهمت انه فكاهة . غـير ان عـــلى الموهوبين ان لا يطغى اضحاكهم الجماهـير على سائر عناصر الخطاب مخافة ان يصبحوا ندامى ومرفهين لا خطباء مرشدين .

وفي الخطب التي ستقرأها لا تجد اكثر النكات التي افتتح بها خطاباتي . ذلك انني اتناول الموضوع من المكان الذي أنا فيه ، ومن الحالة الراهنة . ففي احدى الحفلات مثلاً وقد اجلسونا على منبر نواجه فيـــه النظارة ورحت على عادتي ادخن السيكارة تلو السيكارة بما استلفت النظر ، وقفت وقلت : « سيكون خطابي قصيراً ، لا لأنني اكره الكلام بل لأن الكلام يمنعني عن التدخين » .

وفي موقف آخر قدمني عريف اشتهر عنه انه صديق لي حميم ، وقبل ان ينتهي من الكلمة التي قدمني بها شرب من الكأس التي توضع عادة على المنابر ، فافتتحت خطابي بقولي : « ان العريف شرب من الكأس حتى يؤكد لي انها غير مسمومة » ، وملأت الكأس وشربت منها . في الموقفين كانت النكتة ناجحة .

امّا الجمهور فهو على أشد جموده متى احتشد بـ « علية القوم » . فهؤلاء في غالب الاحيان يذيعون تفوقهم وعليتقومهم بوقار لا يغوص في الأرض ثقلاً لأنه مرتفع الى السماء السابعة ببالون رأس نفخته غازات التفكير . وهم يجلسون وكأن الخطيب ماثل بين ايديهم يدافع عن نفسه بتهمة الخيانة العظمى .

وفي هـــذه البلاد مناطق حيوية لعل اشدها فوراناً مدينة طرابلس ، ومناطق جمود لعل اشدها صقيعاً رأس بيروت .

وعلى الخطيب ان يحترم سامعيه ويكسب ودّهم بان يخاطبهم جميعاً فلا يركز نظره على فئة واحدة منهم . بل يجول بنظره فيهم جميعاً فيشعر كل واحد ان الكلام موجّه اليـــه . يساعد الخطيب ان يكون له في القاعة اصدقاء وانصار على ان لا يتكلف

هؤلاء التحبيذ والتصفيق .

وأسرع الطرق الى الانتحار ان يكثر الخطيب من وقفاته أو ان يعتاد الناس الى دعوته «الى كلمة تليق بالمقام» في كل مناسبة، وبعد كل وليمة ، وفي كل عرس ، وعلى رأس كل ميت .

هــــذه هي بعض نواحي الخطابة الايجابية على ما علمتني اياه التجارب . وقد أغفلت الناحية السلبية ، فمن البديهي ان الانفعال الذي يسيطر على المدرسة القديمة يجب ان نقلع عنه . كذلك ما اعتاد الكثيرون ان يغنوا خطاباتهم أو يزولفوها أو يزمروها أو يصفروها أو يطبلوها .

وكذلك يجب ان ننقطع عن الرياء في تملق القرية او المدينة التي نخطب فيها ، وان نقلع عن عادة التغني باشخاص محليين أو رسميين .

ومن المستحيل ان نصف كتابة كيف يجب ان يكون الالقاء . وكالعادة فأساطين الفن يخلقون القواعد اكثر مما يطبقونها .

ولعل انفع ما يصطحب الخطيب الى المنبر اسم كبير وشهرة تتقدمه ..

سعيد تقي الدين

أفعل الأساليب في مكافحة المحاضرات وقطع دابر المحاضرين

القاعة صغيرة ، ولكنها ملأى .
نحن في طرابلس بدعوة نادي المرشدات. وقد جاءت المديرة تطلب محاضرة . انها لا تريد خطاباً ، ولا حديثاً ، ولا كلمة، ولا نقاشاً ، ولا حواراً ، انها تريد محاضرة .

وطرابلس مدينة تطيب فيها الخطابة. فجماهيرها لا تتثاءب ، ولا ترقد في عصمة الوقار ، وهي تتعشق الكلمة فتحفظها وترددها .

٢٨،٤٢٠ مرة دعيت الى الاستماع لمحاضرة .
و ٢٨،٤٢٠ مرة لم استمع لمحاضرة .
٢٨،٤٢١ دعيت لالقاء محاضرة .
٢٨،٤٢٠ مرة اعتذرت عن القاء محاضرة .
المحاضرة ، ما المحاضرة ؟
انها خطاب يتثاءب ويتمطى .
انها عبارة فتحت فمها ثم نسيت ان تطبقه .
دجاجة تمروح ذيل طاووس . انها خطبة تلبس ردنكوت . هي ألفاظ لها لحية ولها كرش . هي حبّات « غاردينال » كلامية تقتل الأرق وتجلب النعاس . انها لغة كاوتشوكية . انها بالون ينفخ فيه استاذ .
وعلى الصعيد الفردي ليس لي على « المحاضرة » الا شرطان : الاول ان لا اسمعها . والثاني ان لا ألقيها .
ومن الواضح ان في كلامنا هذا ـ واستعمل نون الجمع لأننا محاضر ـ شيئاً من الغلو ، ففي الابحاث ما لا يشرح الا بمحاضرة،

وفي الناس اختصاصيون يستطيعون مناقشة الامور وايضاحها خلال ساعة او اكثر . ولكن هذا الطوفان من المحاضرات ، من بعض اسبابه حب الظهور وزيف الثقافة والتدجيل الكتبي .

نعترف لجورج حكيم مثلاً انه يحاضر في القطيعة بين لبنان والشام . ويشوقنا ان نصغي لبلطجي يقص علينا تاريخ مرفأ بيروت وحركة السفن فيه . ومن النافع ان يلقي فينـــا محاضرة ابراهيم عبد العال عن مشروع الليطاني .

اما ان يتصدى كل واحد منا كما شاع اخيراً لمعالجة الابحاث الاجتماعية على انه فيها مرجع وثقة ، حاشداً في معرض كلامه اسماء مفكرين عالميين . ففي هذا جناية على الحقيقة . وهذا التزييف يا طالما انزل ببلادنا الويلات .

اقول هذا بعد ان ظهر ان القاء المحاضرات صار اداة للتبرج والتضخم ولتشويه العلوم . فليست الشهادة الجامعية « باسبوراً » يدخل كل من حمله الى جنة المعرفة . فكل موضوع تعرف اليه احدنا ليس له من اهمية الا بعد ان يتفاعل في نفسه ويعجن بالتجارب الشخصية ، والملاحظات الشخصية ، ثم يتجوهر بالتفكير الأصيل ويصقل على وهج الاختبار .

ولقد تبين ان الكثيرين من محاضرينا يبدأون اولاً برش العطور على المكان الذي يحاضرون فيه ونثر الأزاهير على جبين من دعاهم الى الكلام ، ثم يعترفون بتواضع مصطنع ان هـــذا الميدان الذي نزلوا اليه أوسع من ان يجولوا فيه خلال ساعة او ساعتين ، ثم يستعرضون اسماء عالمية وكتباً يقولون انهم طالعوها .

ثم يسردون بتيه ودلال حوادث شخصية ، فان كان احدهم اقترب من « تشرشل » ٣٤ كيلو متراً ذكر : « في السنة الماضية حين قابلني تشرشل » ، وان كان قد درس في جامعة « كيلوتسكي » من اعمال دولة « صفرانيا » راح يقص امر مناقشة جرت بينه وبين الدكتور « جهيروز » الاستاذ الاختصاصي في « علوم شروق الشمس عند المغيب وعلاقتها باستئناف الحرب في كوريا » ، هكذا يضفي محاضرنا جواً علمياً مزيفاً على الفلسفة فيلقم سامعيه حقائق بديهية ، ويستعرض ما فتح الله ورزق من عبارات انتشلها من هنا وهناك على انها من صوغ دماغه .

وانها كلمة حق ان اكثر المحـــاضرات التي غمرت « بازار » الثقافة في بيروت كانت لها اضرارها لأنها ضخمت شأن بعض الناس الذين ليس لهم تفكير أصيل ، ونشرت الفوضى الفكرية ، واشبعت الاثرة في بعض حملة الشهادات والسياسيين والمشتغلين بذلك الفن المبهم الذي يدعى « ادباً » وشلت امكانية بعض فتياتنا الذين لو لم يفسح لهم سبيل المجد الموهوم على المنابر ، لطلبوه عملاً فعالاً بين مواطنيهم ، او ثقافة صحيحة ينبتها التفكير الهادىء ، وتفولذها التجارب وتعتقها وتغذيها الاصالة .

وتنطبق هذه الملاحظات بشكل ادق على الابحاث الاجتماعية والسياسية . كثيراً ما نسمع مثلاً : « والمعلوم ان القبائل ان فعلت كذا وكذا صار كذا وكذا » او « من المعـــترف به ان الحكم الجمهوري اذا نزل به كذا وكذا وصار الملك كيت وكيت لنشأت عن ذلك الحالة الفلانية » .

والحقيقة ان السياسة والاجتماع والتاريخ ما هي بعلوم بالمعنى الدقيق . اذاً فليس لأحد ان يقول : « ان المعترف به » او « المعلوم » او « المسلم به » . ان الاجتماع ما هو بمعادلات جبر ، واربعة واربعة في السياسة والاجتماع ما كانت ولن تكون ثمانية. هناك كميات مجهولة ، هناك كثير من الـ X . هناك عامل الانسان بعاطفته وجشعه ، غروره وانسانيته ، ونبله وحيوانيته ، هناك العوامل الخارجية ، هناك المصادفة ، هناك عشرات الـ X .

وليس غرضي اليوم ان أهدم بالتهكم محاولات بعض محاضرينا. قد تكون هذه المحاضرات محاولة صادقة لاستعراض مواطن الضعف فينا ووصف علاجها ولكن هذا الاسلوب ، لانه في غالب الاحيان يتوخى الاهداف الضخمة ، قد يكون صدى لأحلام الضعف النفسي المتوطن في كثرتنا . فنحن نرقب مستعجلين حصول العجيبة التي تنقذنا . بل في كثير من الاحيان نطاب هذا العون من مصادر غريبة عن نفوسنا نحن . وهذه الاحلام الافيونية هي تلازم الضعف فلا عجب ان تأتي المواضيع التي يعالجها اكثر كتابنا وخطبائنا ومحاضرينا من النوع الضخم . من اجل هذا يظهر من يدعون النبؤات ، وفي حالات هذا الضعف تروج الرقى وتزدهر تجارة «البصاره براجه» . وبعض من شاع عنهم انهم مفكرون هم في حقيقة الامر منجمون . وبعض محاضراتنا هي رقى تصفها « البصاره براجه » . والفرق بين عقلية « البصاره براجه » وبين العقلية الواقعية العملية يتضح لمن يكثر الاختلاط بالاجانب فيتسنى له المقابلة بين ما يعالجون من المواضيع وما يعالجه مواطنونا .

تسمع الاجنبي – وهو عادة مواطن دولة تركزت واستقرت – يتحدث عن قنينة حبر ، عن برغي ، عن كرسي ، عن صندوق خشب ، او كتاب . وتسمع الكثيرين من مواطنينا يعالجون ٢٣ موضوعاً في اربع دقائق ، فيختصرون الحالة الدولية ، ويقابلون بين قوى المعسكرين الغربي والشرقي ، ويشرحون افعل السبل لتحسين زراعة البطيخ ، وكيف يجب ان يحدد الاستيراد ، ثم يصفون طريق استرجاع فلسطين . ما سبب البون الشاسع بين التفكير الاجنبي – او لنسمه الغربي – بحوادث معينة ومواضيع هي في نظر الكثيرين منا تافهة ، وبين تفكير اكثرنا في الشؤون الضخمة من عالمية ومحلية ؟

ما السبب ؟

كأكثر الأمور ، هذه المشكلة ليس لها سبب واحد بل عدة اسباب نقتصر منها على ذكر سببين . الاول : ان مواطن الدول الاجنبية لا تواجهه الصعاب التي تواجهنا . ففي ميدان السياسة الخارجي له حكومة هو انتخبها وهو يثق بها ، تكفيه عناء التفكير في ما قد يواجه دولته من مخاطر ، وفي الميدان الداخلي يجد ان نظامه قد حل مشاكله الاساسية من حقوق متساوية امام القضاء ، وضمان اجتماعي هو متوفر في اكثر الدول المتمدنة على درجات متفاوتة بالطبع . ولعل السبب الثاني والأهم هو انه مواطن دولة قوية ومجتمع مستقر ثابت صحيح ، فليس هو من الضعف بحيث يحلم بالعجائب وينادي على كل « بصاره براجه » .

في الدقائق الباقية سآتي على ذكر بعض هذه التوافه التي هي

في نظري هي هي الهامة .

حين ينتسب مواطن الى جيش دولته ، يعلمونه اولاً كيف يجب ان يربط شريطة « صباطه » . وكيف يجب ان يلقي التحية ، ويدققون في اهمية تنظيف حذائه . ذلك لأن الخبير العسكري يعرف ان هنالك علاقة مباشرة بين ربح المعركة بل وربح الحرب ، وبين معرفة ربط شريطة « الصباط » .

اما عندنا فبعض ملوك الكلام ، وبطاركة الافكار ، وفرسان المحاضرات يقتحمون المعارك ويربحون الحروب من غير جنود ، او بجنود لا يحسنون ربط شريطة « الصباط » .

هذه الملاحظات ما هي بتخطيط عام بل الغاية من ذكرها هو اثارة التفكير لاعادة النظر بكثير من عاداتنا والتأمل في كيف ان هذه التقاليد التي مشينا عليها تؤذينا ، وكيف انه لا بد عند التعبئة العامـــة من التشديد على تمحيص ما لا نأبه له عادة او ما افترضنا انه صحيح بسبب اننا درجنا على ممارسته .

هوذا بعض هذه الملاحظات :

١ ـ **فلان بيته مفتوح** . بيته مفتوح ؟ ما معنى هذه العبارة ؟ أفندم نعم بيته مفتوح . يعني ان صاحب البيت يستقبلك في بيته . ما أهمية هذا ؟ يعني انه يقدم لك قهوة وحبة شوكولاته . ويلح عليك بالدعوة للطعام . ما اهمية كل هـــذا ؟ لماذا هي فضيلة ان يكون بيته مفتوحاً ؟ انا افضل ان يبقى بيتي مقفلاً . من له شغل معي فليتفضل الى مكتبي . وان شرف البيت فلتكن اقامته قصيرة ولا ينتظر فنجان قهوة الا اذا جاء بدعوة . الحياة ثمينة وأغلى من

ان تهدر باشياء لا معنى لها . وقيم الحياة هي أثمن من ان تخمن بهـــذا الذي لا معنى له ويذاع على انه فضيلة ـ فضيلة البيت المفتوح ـ .

٢ ـ **الاشاعة** . كم جندلت الأقوال الـكاذبة من ضحايا . وكم رفعت شأن رجل لا يستحق ان نتطلع اليـــه حتى بمنظار . يسود بيننا اعتقادات خاطئة تحرمنا من احترام من يستحقون الاحترام . وتحفزنا الى الابتعاد عن مبادىء من اقل واجباتنا ان نفحصها قبل ان نعتنقها او نرفضها. كم مرة نسمع « فلان آدمي ؟! » « شو آدميته ؟ ما حدا بيعرف » فلان زلمة الانكليز ، ما هو البرهان ؟ » هيك ! كيف هيك ؟ هيك ! » اني اتكلم عن اختبار شخصي حين آتي على ذكر شارل مالك . لقد ساد الاعتقاد فيما مضى ان هـــذا الرجل هو عميل اميركي « ليش ؟ هيك ! » هل فحص احد متهميه مواقفه واقواله فانتهى الى ما يثبت هذا الاتهام؟ لا . شارل مالك ضد العروبة ، هو صنيعة الاميركان . لو انـه اضعف شخصية ، او لو ان له مكانة محلية بدلاً من منزلة عالميـــة لـكانت الاشاعات قتلته ، ولما كنا اليوم ننتفع به كناطق مؤتمن باسم الدول العربية . وعلى الصعيد الايجابي نجد اننا نسمع بفلان مثلاً انه محسن كبير وابو الفقـــير . أي احسان ؟ اين المستشفى الذي شاده او التلامذة الذين علمهم على حسابه ؟ لا احد يعرفهم ، انما يعرفون ان فلاناً ابو الفقير ومحسن كبير .

٣ ـ **نحن والاجانب** ـ بيننا طبقة حقيرة النفوس يتملقون الاجانب بذم مواطنيهم . لا أعرف بلداً في الدنيا يجرأ الاجنبي

ان يتنقص علناً من ساكنيه مثلما يفعل الاجانب عندنا في لبنان . انني بعد اختبار ست سنوات في هذه الجمهورية أجد ، عن معرفة ، ان اللصوصية موجودة بيننا وبين القليلين من مواطنينا . ولكن اللصوص الضخام واسياد الصفقات الكبرى من الناهبين والسالبين هم اجانب لا وطنيون . مع كل هذا نسمح للاجانب انيتنقصوا منا علناً . وقليلون بيننا من لهم الكرامة الوطنية والجرأة ان يوقفوا الأغراب عند حدهم . بل نحن نجد اننا في كل جلسة نجتمع بها الى الاجانب تسابقاً الى التزلف لهم بالقدح من بلادنا ومواطنينا . وهذا ما يشجع الاجانب على احتقارنا والامعان بسلب حقوقنا . هذه الخيانة التي يقترفها اكثرنا من امتهان بني قومهم كلفتنا وتكلفنا الكثير من المال ومن الكرامة .

٤ - **الاديب** - في معتقدنا السائد شيء خاطىء . اعجاب لا مبرر له بالأديب من كاتب او شاعر . نتوهم ان الاديب مؤهل لأن يصبح وزيراً او مدير كمرك ، او اي شيء . الحقيقة ان الاديب في اكثر الاحيان هو رجل يحسن الكتابة ، كما ان الحلاق هو رجل يحسن الحلاقة . وهذه الهالة من الاعجاب والتكبير التي انتشرت حول الاديب كأديب يجب ان تمحى كي تستقيم موازيننا .

٥ - **الكلمة المطبوعة** - كذلك في نفوسنا عبودية للكلمة المطبوعة ، وللكتاب . ان الذي يعرف كيف تحرر الصحف والمجلات وكيف تؤلف اكثر الكتب يزول من نفسه التقديس للكلمة المطبوعة . وهذه الحقيقة تنطبق بشكل اصدق على ما يظهر في بلادنا من كتب وصحف ومجلات .

٦ - **بعض تفكيرنا الحقير** – لماذا نعتقد ان غناء جارنا هو تحد لنا ؟ لماذا نتوهم ان اطلق فلان سهماً ناريا انما يفعل ذلك نكاية فينا ؟ لماذا التفكير الحقير ؟ اسمع البعض يصيحون ان مكبرات الصوت تركب في الجوامع نكاية بالمسيحيين، وان الصلبان المنتشرة على الطرقات انما قامت هناك لوزوزة عيون المحمديين . ان القرآن الكريم في ايمان الملايين هو رسالة منزلة من الله . وهو في اجماع البشر كتـــاب عظيم يحتوي على التبشير الانساني الرفيع . اني اشتهي ان اسمع التجويد لا خمس مرات في النهار بل خمسين مرة . واصغي الى التجويد بخشوع ورفعة .

والصليب انه رمز الايمـــان والفداء والشعار المقدس لمئات الملايين من البشر . فرؤية الصلبان توحي في النفس المحبة ولاتوقظ البغضاء . إذاً لماذا أثور أنا المسيحي لسماع الأذان في مكبرات الصوت ، وأغضب انا المحمدي لرؤية الصلبان على الطرقات ؟ ان كان بيننا من يلوح بالشعائر الدينية لايقاظ الاحقاد الراسبة ، فالسبيل لمقاومة ذلك هو ان تقبل هذه الشعائر كما وجدت ، كما يجب ان تكون مصدراً للود والاخاء والتأمل .

٧ – **الوقار وفروعه** – ومن الفضائل التي لا قيمة حقيقية لها هو ما يسمى الوقار . كأن الفكر او الشخصية أو القيم السامية ، لا تثبت الا اذا تردت العبوس ، وتهادت في كلمات موزونة كأنها النقد النادر Quota ، ويتفرع من الوقار نقـــائص كثيرة ، حتى اختلط علينا الامر فصرنا نحسب ان الشراسة شجاعة ، وصار تقطيب الحاجبين والنظرات النارية مقياساً للبطولة . والحقيقة التي اثبتتها

تجارب الحروب ان الشرس هو في اكثر الاحيان جبان في المعركة، وقد يكون بطاشاً في « المشاكل » . وان اللطيف المتواضع هو الجندي الأمثل .

٨ ـ الأدب القديم ـ آداب العربية التي درسناهـــا ، والتي لا تزال تدرس وتسري امثالاً على ألسنة الناس يجب اعادة النظر فيها . ويجب على الأمهات والآباء والمدارس في بلادنا ان يقوموا بحملة في هذا السبيل ، وان كان نظام التربية عندنا خاطئاً فيجب علينا ان نصلحه نحن في البيت والمعهد وبتوضيح الامور لناشئتنا . يجب ان يفهم اولادنا حين يقرأون اشعار الاخطل والفرزدق والحطيئة ان الهجاء قذارة عقلية . وان انشاد الشعراء في حضرات الملوك والخلفاء والامراء هو تسول وذل . وان هؤلاء حين كانوا يأمرون بالهدايا والاموال انما كانوا ينهبون اموال الشعب لارضاء اثرتهم وغرورهم . وان التفاخر بالاجداد وبالاعمال هو قلة ذوق . وان كل هذه النقائص لا تزال متفشية في مجتمعنا لأسباب كثيرة من اهمها ان كتب الآداب عندنا لا تزال تعمر بهذه النقائص مرتدية اثواب دور النشر في طبعات جديدة .

٩ ـ شرفونا على سهوه ـ في بلادنا مؤسسة يجب هدمها . هذه المؤسسة اسمها السهرة . سيران في صالون . ساعات ساعات نهدرها حلقة مفرغة . نطوف بها على اصدقائنا ، ويطوف خلالها اصدقاؤنا علينا . وكما ان الارض ومواردها هي ثروة الامـــة لا يحق لأحد ان يهدرها او يتلفها ، كذلك يجب ان نعلم ان وقت المواطن منا هو ايضاً ملك الامة لا يحق لأحد منا ان

يضيعه. وانه لهادر للانتاج من يستحق وقته حديثاً حديثاً. وكلاماً كلاماً في سهرات لا تنتهي مع اصدقائه وجيرانه. نحن لا نستطيع التغلب على اليهود حتى ولا مقاومتهم ان كان أغلى ما نملك، هذا الوقت، نرميه كأنه شيء لا قيمة له.

سيداتي سادتي

ما هي مصادفة اننا ضعفاء. هذه البلاد اثبتت كبرها وقوتها خلال الوف السنين. وحالتنا من الضعف اليوم والاستخذاء لها اسبابها. واني لم احاول اليوم شرحها ولا علاجها. ولقد اعطيت أمثلة قليلة على ان بعض الطريق لنجاتنا وتحقيق مصيرنا وتجسيد امانينا هو موقف فكر ثوري يعيد النظر في عاداتنا الاجتماعية. هذا الموقف يحتم علينا ان ننظر الى كل ما نحن فيه من انظمة نظرة موضوعية جديدة. ونحن لا نستطيع ان نتطلع الى مشكلاتنا ولا ان نحلها الا اذا اقبلنا بجرأة وتعر على تفقد قوانا، والتخلص بحزم وانتفاضة من كل ما يكبلنا. والا فما نحن بمخلصين. نقطة الانطلاق ليست النظر الى جزئيات الامور ولا توقع العجائب. كل واحد منا يجب ان يحيا في جبهة قتال. وليس من المعقول ان نربح الحرب الكبرى ان كنا نخسر في كل جبهة من جبهاتنا الصغرى.

لا اعتذر عن قصر هذا الحديث. مهمة الثقافة، ومنها القاء المحاضرات، هي ان لا نسلم الناس الفكر رزماً مضبوبة، ولا ان نقدم الفكر برشانة يبتلعها السامع. مهمة الثقافة - ومنها القاء المحاضرات - ان نستثير الفكر فيفعل كل عقل وينطلق موجات

مغرقاً كل خرافة متحدياً كل افتراض ، منضبطاً في نظام المنطق ، مستهدفاً الغاية الكبرى — تقوية المجتمع .

ايها المواطنون

قبل ان اتوقف ، يتوجب علي ان اجيب على السؤال الذي هو موضوع هذا الحديث : ما هي افضل الاساليب في مكافحة المحاضرات وقطع دابر المحاضرين ؟

هل نقتلهم جميعاً ؟ لعلهم يستحقون اكثر من الاعدام !

هل نستصدر قانوناً يمنع القاء المحاضرات ؟ ان القوانين تشترع حتى تخرق . هل نرميهم في البحر ؟ قد لا يسعهم البحر . اذاً كيف السبيل الى القضاء عليهم ؟ لعل افضل الاساليب هي اقتباس قاعدة اقتصادية : تنزل قيمة النقد وتتلاشى حين يباح طبع الاوراق المالية . سبيل التخلص من المحاضرات والمحاضرين هي الاكثار منها ومنهم .

لهذا كانت هذه المحاضرة .

لكل مواطن خفير

افتتح مؤتمر خريجي الجامعة الاميركية في قاعة الاونسكو . وتصدر القاعة فخامة رئيس الجمهورية اللبنانية وخلفه صفوف الكراسي الفارغة حيث كان من المفترض ان يجلس الساسة «والوجهاء» كذلك تخلف عن المقصورات في اجنحة القاعة ممثلو السفارات والهيئات الا رجل يعتمر كوفية وعقالا فهمنا بعد ثلاثة اشهر انه جاء ممثلا لسماحة المفتي الحاج امين الحسيني . اما المؤتمرون فلم يبلغ عددهم المئة والخمسين . وكنا خطباء ستة احدهم رئيس الجمهورية . وقد سبق انعقاد المؤتمر شائعة تهمس ان يداً اجنبية تديره . وساد في مفهوم الناس انه سيكون مظاهرة كلامية جديدة . لذلك جاءت كلمتي متواضعة مختصرة تحدد اهدافاً صغيرة .

فخامة رئيس الجمهورية

سيداتي وسادتي ، ايها المؤتمرون .

سيكون نجاح هذا المؤتمر كبيراً ، ان استطاع ان ينفذ اعمالاً صغيرة .

غاية هـذا المؤتمر ، كما اذيعت ، وكما بحثت ، وكما خططت ، « قضايا العالم العربي » .

وقضايا العالم العربي ، كيف عالجتها ، وكيف استعرضتها ، وكيف تهجأتها ، وجدتها لفظة واحدة ـ فلسطين .

لقد احتل جنوب بلادنا ، ويحتلها ، عدو له حلفاء وله اعوان .

ومن حلفائه تخاذلنا ، واحقـــادنا ، وغرورنا وتهربنا من مسؤولياتنا .

واكبر اعوانه ان الصراع فينا اصبح مهمة نكلها الى سوانا .

قال هذا المؤتمر لنفسه : « ابدأ بنفسي » .

ولقد اجتمعنا لنطمس خلافاتنا ، فنوحد جهودنا لعمل شيء ، لا لنستعرض انشقاقاتنا فنتصايح في عرس فصاحة ، ومهرجان

انفعالات لعمل لا شيء .

ونحن مواطنون قبل ان نكون خريجين . فان اجتمعنا اليوم كمتخرجين فليس لنسوّر نفوسنا في برج عاجي جديد . بل لأن جمعية المتخرجين هدمت بعض الحيطـــان التي سورتنا فئات ، واحزاباً ، وشيعاً . فهذا المؤتمر هو نقطة التقاء وهو كذلك نقطة انطلاق نحو سائر الفئات والاحزاب والمنظمات .

قد نخرج بقرار ندعو به الجامعة العربية لنقل مقرها الى القدس او قبية او نحالين . ولكن بعد ان نعقد نحن مؤتمرنا في القدس او قبية او نحالين .

ويبتسم الهازئون ، ماذا في وسعكم ان تفعلوا ؟

نقول انه صفر من رسم حول نفسه دائرة الصفر .

لا اصدق ان في هذه الامة فئة او فرداً تعجز او يعجز عن المساهمة ولو بقدر قليل في دفع الخطر عن البلاد .

لقد اتخذت الجامعة العربية قرارات مقاطعة بعضها لا ينفذ . هنا ، الآن ، نحن نراقب تنفيذها وننظم الفرق لها .

بعض اقطارنا ملأى بنشاط الجواسيس والمهربين . هنا ونحن والآن يجب ان نعاون السلطات على مكافحتها . وان اعياهـــا ذلك تولينا نحن بايدينا مكافحـــة الجواسيس والمهربين والخونة . هكذا نوقظ روح الصراع فينا وفي مواطنينا حتى ليصبح شعارنا: « كل مواطن خفير » .

فالضمان الجماعي ينجح متى سانده ضمير حي فاعل جماعي .

يجب ان نثق من النجاح لأننا نثق بانفسنا ، وببعضنا . وان

الجهد القليل القصير الذي بذل في التمهيد للمؤتمر اثبت ان في كل وسط، ودائرة ، وبيت من يشعرون بالمسؤولية ويتجندون لها .
هذا المؤتمر يستنفزهم وينظمهم .

سمعنا الكثير عن الخيانات في فلسطين ، ولكننا اغفلنا امر البطولات . من شعبنا من قاتل وناضل واستشهد .

ومن شعبنا من يقاتل اليوم في القرى الامامية. هؤلاء لا يعوزهم الايمان ، ولا تعوزهم البطولة ، بل تعوزهم الاسلحة . يجب ان نساهم في توفير الاسلحة لهم . فهم لا يدافعون عن بيوتهم في القرى الامامية ، بل هم يدافعون عن كل بيت من بيوتنا أكان هـذا البيت في الكويت او بغداد او دمشق او بيروت ويدافعون عن القاهرة والرياض اذ يدفعون العدوان الصهيوني .

وتتلوى حية اسرائيل تفح اغنية المحبة في الشرق الأوسط على انها هديل حمامة السلام . من هذه القاعة يجب ان نفهم الدنيا انه فحيح الافعى ، لا هديل الحمام ، ما يسمعون .

من هذه القاعة يجب ان نفهم اصدقاءنا الكثيرين في انحـاء الدنيا اننا نؤمن بصداقاتهم ، وان نفوسنا مشبعة بالمحبة لا تعادي ولا تستعدي .

هذا المؤتمر ما هو بصفر لانه لن يرسم حول نفسه دائرة الصفر .

كل مواطن خفير . سيكون نجاحنا كبيراً ان استطعنا ان ننفذ اعمالا صغيرة .

يا أحمر

القيت هذا الخطاب في حفلة توزيع الشهادات في مدرسة الشويفات ١٩٤٨.

كان الجمع كبيراً جداً وكانت كلمتي اولى كلماتي التي القيتها بعد عودتي من المهجر ولم اكن واثقاً حينئذ من مقدرتي على الخطابة. الجمع طغت عليه الصفة الدرزية لان « الشويفات » درزية. اعترف خجلا نادماً اني اردت تملق الجمهور بمثل « بذلوها باعوها » وهو تعبير درزي. كذلك دغدغته بالاشارة الى ذكر بطل مجاهد اسمه حمد صعب. وقد تلقيت جزاء هذا النفاق اذ اكتشفت بعد القاء الخطاب ان عائلة صعب كثيرة العدد في الشويفات ولكن حمد صعب ما هو احد العائلة وليس هو من الشويفات بل من « الكحلونية »، ثم اقترفت خطأ ثانياً وهو انني افترضت ان المتخرجين سيجلسون قبالتنا وجلسوا وراءنا. ولكن الخطاب كان ناجحاً جداً، بدليل ماتناقل الناس ورددوا من آرائه، والظاهر ان الخطب كانت قبل هذا عبارة عن هوائيات. نجاح هذا الخطاب بعث بي ثقة في النفس بعد انقطاع ثلاث وعشرين سنة عن الخطابة بالعربية حتى ــ ولحد ما ــ التحدث بها.

أدير نظري بين هذه الوجوه النضرة فيؤلمني ان لا ارى وجها حبيباً إليّ ، هو وجه الفتى عمر .

ان عمر ، فتى لم تعرف هذه المدرسة له شبيهاً : عثليتي الجسد، وقاد الخاطر ، جريء القلب، فصيح اللسان ، ورع يعبـــد الله ويمشي على وصاياه .. ان عمر فاز بكل الجوائز المدرسية ، وهو قافز الى الحياة تواكبه قلوب عائلته ، ورفاقه التلامذة واساتذته وكل عارفيه .

عمر هو ولدي ، وهو ليس بينـــكم اليوم لانه بقي حلماً في خاطري ، وبريقاً في عيني ، فلم يمنّ الله عليّ بغلام ذكر ، حلمت بتسميته عمر .

لو ان عمر ولد ابناً لي وكان هذه الليلة بينكم فما الذي كنت أود ان يسمعه ؟ لعل اجدر بي ان اقول اولاً ما الذي اريد ان لا يسمعه ؟

اود لعمر ان لا يسمع خطاباً داوياً كل ما يترك في نفوس سامعيه صدى جميلاً لكلام مبهم فخم .

ان من يتوخى التصفيق في الحفلات يفوز بالتصفيق . قليل من المديح ، وشيء من الاشادة بالماضي ، وبخمسة قروش عواطف – هذه روشتة الخطب الناجحة .

اريده ان يسمع نصائح صاغتها الحياة من دماء العيش ودموعه . كلاماً صقله غبار الحياة ، وفيه بريق وحرارة ولدها احتكاك آلام الخيبة بافراح الانتصارات .

فيا عمر ويا رفقاء عمر ،

كلماتي التالية ستنقصها البلاغة ولن ينقصها الاختبار . لن تكون فخمة ولا جزلة ولكنها مخلصة . كم مرة في سني الغربة قعدت فاشلاً منهكاً ، ورفعت الى الله عينين جريحتين ، ابتهل ولا اعاتب . بل ضارعاً : « ربي يسر لغيري ما حرمتنيه ... رب ارسل لفتياننا من يرسم لهم خارطة الطريق فلا يتيهونها . »

فيا عمر ويا رفقاءه ،

نصيحتي الاولى هي ان تقتنعوا انه ليس عن الوقت من بديل . . طريق النجاح في معظم الاحيان ، طريق موحشة ، صعبة ، طويلة ، فلا تحاولوا اختصارها بدروب القادوميات غير المشروعة . . بدون ريب ان سوق الكميونات هو اقل ربحاً من تهريب الحشيش . ولكن من يقترف منكم التهريب يتغلغل في خلايا نفسه ، سم من القلق الروحي لم يجدوا له بعد ترياقا .

بعد عودتي من غربة السنوات الكثيرة رحت اتطلع الى وجوه رفاق الصبا ؛ فاما من سرق وكذب وارتشى وداجى ، فحول احداقه وعلى جانبي فمه خشونة بصقتها نفسه ، شبه سم الافعى ،

يطفو على انيابها اذ هي تحاول الدفاع عن السم الذي يجسدها بالسم الذي تنفثه . واما من طهرت نفسه وعاش في أمن وسلام مع خالقه وضميره وجيرانه ، فلقد طغت على وجهه موجة من الهدوء والثقة والصراحة .

كذب من قال لكم انه فاز بالسعادة من فاز بالمال عن طرقه غير المشروعة .

عاشرت الاغنياء والاقوياء الذين سلكوا القادوميات ، فاذا هم في معظم الاحيان يركضون هنا وهناك ، يحاولون ابتياع ما لا يشرى بمال . ذلك الهدوء الروحي الذي رأيتموه هنا في هذه البلدة على وجوه الكثيرين الذين لم يخافوا الدروب الوعرة .

الامثولة الثانية التي اريد ان يحذقها عمر هي الاقتصاد : الاقتصاد في بدء الحياة . لقد سمعتم ولا ريب ان اصعب مراحل الثراء هو الحصول على اول مليون ليرا .

اسرفوا وبذروا ما تشاؤون ، انما بعد ان تحصلوا على المليون الاول .. فرص كثيرة في الحياة فاتتني لانه لم تكن لي الحكمة ولا قوة ضبط النفس على توفير الف او خمسمائة ريال . لتكن لكم جرأة مجابهة الناس بكف مقبوضة .. ليسمكم الناس بخلاء . البخل في معظم الاحيان هو تقريط لازم .. لتكن لكم الجرأة ان تظهروا بثياب عتيقة ، وكرافاتات لم تصل من باريس في فجر هذا النهار ، ولتكن لكم الشجاعة ان تشبعوا ضيوفكم ولا تتخموهم .

اقول لكم كونوا بخلاء في بدء العمر ، فتضحكون بعدئذ

ممن كان يضحك منكم . اقول كونوا بخلاء ولا تكونوا لؤماء . التقتير والروية في الانفاق امر محمود ، ولكن البخل في موقف النبل هو لؤم . اقول لكم لا تهدروا الشمبانيا ، ولكني لم اقل لكم ان تحبسوا الرغيف عن لاجئ فلسطين .

كذلك اقول لكم وللحبيب عمر ان تعطوا الحياة شيئاً اسميه « زودة البياع » . اذكر حانوتياً جاور بيتنا دكانه فيما مضى ، وكنا نحن ، صغار الاولاد نذهب اليه بالمتليك ، فيزين لنا القضامي ويصرها في ورقة ، وحين يهم بتسليمها الينا يحفن من طبقه قبضة من القضامي ويرميها في الصرة مخاطباً ايانا مودعاً قائلاً : هذه « زودة البياع » . وكنا نحب ذلك الحانوتي ونحترمه لانه كان يسخو علينا بما لا يطلب منه . كانت محتويات الصرة من القضامي دسمة ، ولكن ادسمها كانت تلك الحبات التي يجود بها جارنا الحانوتي .

كل امر نبيل في هذه الحياة هو « زودة البياع » : الشوفير الذي يفتح باب الاوتوموبيل لركابه ، بعد ان يقبض الكراء ، والطبيب الذي يداعب مريضه ويلاطفه بعد ان يصف الدواء ، والمرأة التي تساعد جارتها بتقريص العجين ، كلهم يعطون اكثر مما هو مفروض عليهم .

اعرف ان من الشويفات ، كثيرين ممن اعطوا من طبق الحياة ، حفنات من القضامي . اسمع بمحمد صعب ، الذي ترك ضيعته وحمل بارودته ، ورقد رقدته الاخيرة في بقعة لم يسمع بها يوم كان فتيا ، لانه من قوم تعودوا ان يجودوا في الحياة «بزودة

البياع ، وما هي بأول مرة بذلوها ، وما هي بأول مرة باعوها .

كذلك تسنى لي طيب الاخوة مع المرحوم بشاره الجريديني من الشويفات ، واذكر فيما اذكر عنه ، انه ما سمع بأن خلافاً نشب بين اثنين الا وتطوع لتسويته . او عرف شخصاً نكب بأمر الا واسرع بالترفيه عنه بالنصيحة والمؤاساة .

ايها الفتيان .

من شروط النجاح والسعادة في هذه الحياة ، ان تهبوها غير المنتظر منكم وفوق المفروض عليكم . واريد لكم ان تطلبوا القوة ، والمال ، فاطلبوهما . ليس في الجهاد في سبيل المال من عار . لقد سعيت وراء الدولار ٢٣ سنة من حياتي وما انا بخجول . الثقافة التي فزتم بها كانت اهلكم مالا .. لولا المال لما شريت البنزين الذي سير الاوتوموبيل الذي نقلني اليكم . هذه الورقة التي منها اقرأ شريت بمال . الدواء الذي يشفي المريض ، لا يحصل عليه الا بالمال .. حاولوا الحصول على المال بكل وسائطه المشروعة .

المال قوة ، ولكنه ليس بالقوة الوحيدة . الصوت الجميل هو قوة . الصوت الانتخابي هو قوة كما تعلمون . من يجيد تصليح السيارات فهو قوي . من يحذق صنع الاحذية فهو قوي .

نصيحتي هي امتلاك القوة ، بتشغيل مواهبكم واستغلالها الى الدرجة القصوى . واني اتمنى لعمر ، ولرفاق عمر ، ان يكونوا فتياناً تكهربهم حمية الفتوة .. اني ارى الخوف قد ملك على شبابنا قلوبهم . هم يرتعبون من ميدان القتال في الحياة فيجنحون

الى دفء وظيفة في التابلاين او الـ I.P.C . اريد من عمر ومنكم ان تتنافسوا فتياناً تملأهم روح الغمار ، فلا يخافون الفشل ، ولا الجوع ، ولا الفاقة . لكل مصيبة عزاء ، وعزاؤكم عن الجوع انه يجوهر الجسد ، وعن الفاقة انها تقوي الروح ، وعن الفشل انه طريق النجاح .

هذه هي بعض الفضائل الايجابية التي ارغب اليكم في ان تعتنقوها . اما الفضائل السلبية فكثيرة . انتقي منها اثنتين :

الاولى - لا تكونوا اعتذاريين . انني كلما حدثت احداً من الناس عن فلسطين مثلاً لماذا لا يفعل كذا وكذا - غطى وحرك موتور لسانه ، فزغرد خطاباً فخماً يدوي بالاعذار التي تنتهي عادة بان الحكومة مقصرة . من يمنع الواحد منا ان يجاهد في فلسطين ، او ان يجود عليها بكل ماله ، او ان يؤاسي لاجئيها ؟ لا تسأل الناس هذا السؤال ، لانك تنتهي بان تغرق في طوف من الكلام الفصيح والاعذار الملبقة . متى اتخذ الواحد منكم موقفاً اعتذارياً ، ينتهي بان يقنع نفسه بان فعل اي شيء مستحيل ! حذار حذار من الموقف السابي من العيش ! فكروا بما تقدرون على فعله ؛ واطرحوا الاعذار التي تبرر لكم في عيونكم عجزكم عند القيام باي عمل مثمر مفيد .

واخيراً ، فليبتعد عمر ورفاق عمر عن الفصاحة والزركشة الكلامية التي ملكت ألسنة الناس هذه الايام . انني كلما سمعت كلاماً انيقاً مثل : فظيع ، فظاعة ، التوجيهات ، التكتل ، العناصر الحيوية ، اعلم ان قائلها كسول التفكير ، خلّ عنك موهن

الكلام واستوح عاطفتك وعقلك وافصح عن قلبك وادراكك باللغة التي تملكها انت . فانك متى اخذت عن الناس مألوف كلامهم فقد قتلت في قلبك فورانه ، وفي دماغك حدة تفكيره .

يعز علي ان عمر ليس بينكم ولكني تعزيت عن غيابه بلذة التحدث والتعرف اليكم . واعلم ان كلا منكم هو للبنان عمر ، وان لبنان ينتظر منكم رجالاً احراراً شجعاناً مغامرين ، تخافون الله وتتعاونون مع جيرانكم ومواطنيكم .

خطاب يبحث عن موضوع

دعتني منظمة الكتائب اللبنانية الى القاء خطاب في حفلتها السنوية التي اعتادت ان تحييها في اواخر نوفمبر . كان ذلك قبل دخولي الحزب السوري القومي الاجتماعي . ولعل بعض المغريات لدعوتي اني غير مسيحي ، ورحت استشير الاصدقاء عن موضوع ، فكان كل منهم يجيب « الطائفية » .

وقد حدث انني حين كنت القي الخطاب ووصلت الى « سفينة النجاة لن تجر في اوقيانوس من زبد الاشداق ورغوة الافكار ولن تسير شراعاتها ارياح الهتافات » — حين نطقت بهذه العبارة رأيت في الصف الرابع شباناً ثلاثة ينصرفون متأففين .

حضرة رئيس حزب الاتحاد اللبناني

اخواني الكتائبيين ،

سيداتي وسادتي ،

ليس في يدي خيزرانة ، ولا على جنبي مسدسان ، ولا مسدس واحـــد .

ولكني اريد ان ادعي ، وان اعلن وان اتبجح انني اكبر قبضاي .

وما انا بمفتخر بشجاعة جسدية . فلئن خضت معركة ولم اهرب ، فقد لا يكون البأس والاقدام والجرأة ، اسباب ثبوتي في المعمعة ، بل لعلي أبقى في ساحة القتال ولا اهرب لسبب واضح ، جلي ، ظاهر ، وهو انني لا استطيع ان اركض .

منذ ايام أراني صديق صحافي ، بشيء من المباهاة ، مقالاً أعدّه للنشر ، وفيه يهاجم الحكومة . قلت للصديق الصحافي : « مهاجمة الحكومة أمر هين . ان كنت قبضاي دافع عن الحكومة » .

ولست ادعي باني قبضاي ، لأني جئت ادافع عن الحكومة ،

او لأبشر في هذا المحفل بالعروبة .

بل اني لا ادري عمن ادافع ، ومن اهاجم ، وبماذا ابشر ؟.

الذي اعرفه اني سأفصح عما يجول في خاطري ، ويوحيه ما اتوهمه حكمة ، وصدقاً واختباراً. يا لعار مثالية هؤلاء توحي كلاما ينطق به ذو عينين احداهما ترنو الى مقعد نيابي والثانية ترمق مصلحة شخصية .

ما انا بالغريب عن « الكتائب اللبنانية » وان كنت لست من اعضائها ، وعلى رغم ان اتصالاتي بها اقتصرت على زيارة واحدة ومقابلتين .

لقد قصدت الى بيت الكتائب اللبنانية منذ سنتين ، عن غير معرفة ، وسألت رئيسها ، واعضاء مجلس ادارتها ، المساهمة في عمل يعود لخير اللاجئين الفلسطينيين ، فلقيت منهم الكياسة ، والاندفاع ، وقاموا بخدمة اللاجئين كما طلبت ، ودفعوا النفقات من صندوقهم .

كل هذا ، من غير ضجة ولا مباهاة .

قلت قصدت الى بيت هذا الحزب عن غير معرفة . ولم لا ؟ .

ان كانت هذه المنظمات وجدت للخير العام ، وان كان الواحد منا يشعر بانه جزء حي من هذا الوطن ، فله الحق بل من الواجب عليه ان يستنجد بالمنظمات في كل ملمة ، وفي سبيل الخير العام .

ثم كذلك على المواطن الصادق الحي ان يشعر انه قريب الى مواطنيه . اني لا اعرف في لبنان شخصاً لا يشرفني ان اواخيه ، ولا معبداً لا يشرفني ان اركع فيه .

من اسباب تفككنا القومي اننا في عصر مائع بين عهـد الاقطاعية المطلقة ، وعهد الحزبية المنظمة الصحيحة .

فمن الناحية القصوى ، ليس في البـلاد اقطاعي ، او عشرة اقطاعين يستطيعون ان يعبئوا الشعب جمهوراً طيعاً خدوماً . ومن الناحية المعاكسة ليس فيها عشرة احزاب تقوى ان تستنفر جنوداً مدربة منظمة .

لذلك وجب على الافراد ان يشجعوا الحزب - اي حزب - على انه المنظمة التي نفتقر اليها ، ووجب على الاحزاب ، وهي ما تزال في طور الاختبار ، ان لا تخون الفكرة الحزبية وتصبح مطية للرغائب .

حين تفضل السيد بيار الجميل - وليسمح لي ان اعريه من مشيخته - ولقاء ذلك اتعرى انا من مشيختي - اقول حين سألني الشيخ - السيد بيار - الكلام قال ان بينه وبيني فروقات ولكننا متفقان على الجوهر .

بلى ، ان بيننا فروقات عديدة ، قد اعرف بعضها وقـد اجهل البعض الآخر .

معمل الصابون يصنع الصابونة كالصابونة . فبركة البلاط تنتج البلاطة كالبلاطة . طبق الترمس حباته متشابهة ، اما الرجال الذين يدعون الفكر الحر ، والعقل المستقل المستنبط الواعي ، فـلا يُجمعون على كل شيء . لا تجد الاجماع الشامل على الامور كلها الا عند المستعبدين والصعاليك ، اجل ان بيننا فروقات كثيرة ، ارجو ان تتكاثر والا تمحى .

اما الجوهر فهو ان لبنان ، قبل ان يتجسد حقيقة واقعية نهائية ، ووضعاً لا مجال الى اعادة النظر في كيانه ، كان لبنان نبرة في حدائنا ، ولهباً في عيوننا ، وموسيقى في اغانينا ، وحنيناً في نفوس مهاجرينا ، وحبالاً التفت حول اعناق شهدائنا .

اما الجوهر فهو اننا لن نذهب الى لبنان بان نبني حوله الاسوار .

في زمن تحتضن به اميركا الجبارة ، جاراتها الدول اللاتينية الاميركية وتجعل منها جبهة حليفة ، وفي الوقت الذي تتكتل به دول اوروبا في حلف اطلانتي للدفاع عن كيانها ، وفي هذا اليوم الذي انصهرت فيه دول اوروبا الشرقية في القالب السوفياتي القوي ، لن نقترف نحن ابناء الوطن الصغير الخطأ الكبير ، فنبتعد عن الدول العربية اللواتي هن بحكم التاريخ ، والجغرافية ، والمصلحة حليفات للبنان شقيقات له .

واما الجوهر فهو انه مهما اختلفت بيروت ودمشق ، وتعالى صياح الحكومتين واشتبكت الاقلام ، فعلينا ان لا يزيغ بصرنا عن حقيقة بديهية ، اساسية ، وهي انه ليس لنا في سوريا اعداء طبيعيون .

ليس لنا في سوريا الا اصدقاء طبيعيون .

ويجب ان يفهم السوريون ان ليس لهم في لبنان اعداء طبيعيون ، بل ليس لسوريا في لبنان الا اصدقاء طبيعيون .

اما الجوهر فهو ان على ابوابنا المشرعة ضبعاً يعسعس ، ويهدر ، وينفخ السم ارياحاً ، ولقد بدت مخالبه تجرح من اعناقنا

ان الذي لم يحس بناجذ اسرائيل في عنقه هو امـــا ميت او يخدر نفسه باوهام .

ان هذا الضبع يريد ان يبتلعنا ، ويقدر ان يبتلعنا ساعـــة يشاء ، وحين يفعل هذا سيزدردنا اغنيـاء ، وفقراء ، مفوضيات ووزارات ، مسلمين ومسيحيين ، كتائبيين ونداثيين ، سباق الخيل وملعب « البيسين » .

بحق نحن ننتقد الحكومة انها لاهية عن المهام الكبرى بسياسة المختار والناطور . ولكن النقد يبلغ ذروته الصادقة حين يوجهه الناقد الى نفسه ، ونحن اذ نغضي الطرف عن الخطـر المداهم لنعنى بمن تولى منصباً وبمن استقال ، نكون قـــد تلهينا عن المعضلة الكبرى باللعب بخيط من شرابة طربوش المختـــار ، وبذرة من تراب علق بعصا الناطور .

قد نتساءل : « ما في وسعنا ان نفعل ؟ »

في وسعنا ان ننتفض .

من هذه الانتفاضة تتولد القـــوة التي تكهرب كل مواطن وكل شيء .

هذه الانتفاضة تجيش الجيوش وتسيل المال ، وتنشىء القلاع ، وتبقي هذا الوطن مصفقاً حرا طليقاً .

ليمتحن كل واحد منا ولاءه لقومه ودولتـــه ، واستقلاله بسؤال بسيط : « حين تنزهت الطائرات الاسرائيلية في سمـــاء لبنان هل انتفضت ؟ »

هنا محك الصدق في الوطنية .

هنا تنجلي الوطنية القوالة ، الوطنية اللهاثة ، النفاثة ، النافورية، عن الوطنية الفعالة الهادئة .

ان سكان لندن وسكان ستالينغراد خلال السنين السوداء في الحرب الاخيرة لم يهتفوا بحبهم للوطن ، ولم يتغنوا بامجادهم التاريخية ، ولكنهم صبروا على النار والدمار والقنابل والموت بهدوء ، وجلد ومكابرة .

هذه هي الوطنية الفعالة .

حين استشرت اصدقائي عن الموضوع الذي يحسن ان اعالجه من فوق هذا المنبر كادوا يجمعون على القول ان الموضوع الاجمل ، والاليق ، هو الطائفية .

على اني لا اريد ان اخطب في الطائفية . لقد قلت كل ما اريد قوله في الطائفية حين تزوجت فتاة من غير طائفتي .

لقد دونت كل ما اريد ان ادوّن عن التعصب الطائفي حين آخيت في الحياة ، وشاركت في الاعمال ، فتى من غير مذهبي ، وفوضت اليه ان يوقع باسمي ، كما فوض هو الي ان اوقع باسمه ، فله ان يحرمني من كل ما املك ان شاء ، ولي ان احرمه من كل ما يملك ان شئت .

في السنة الماضية نشرت جريدة العمل افتتاحية اغضبت اوساط الجامعة الاميركية واخصها المتخرجين .

كان من السهل اذ ذاك ان اجاري التيار ، فأقف من جريدة « العمل » والكتائب موقفاً عنيفاً فاكتسب شعبية رخيصة ،

وامتطي موجة من صخب ترفعني في عيون الكثيرين .

ولكنها طريقاً ثانية سلكت ، فتبادلنا الكلمات الناعمة ، وفناجين القهوة ، وكانت زيارة ود وانتهى الامر .

اني لا اعرف في لبنان معضلة لا يحلها حسن النية وكلمة ناعمة وفنجان قهوة .

لا اريد ان اخطب بالطائفية ، لان الكلام فيها يضر ولا ينفع .

لا اريد ان اخطب بالطائفية لان الخطابة في الفضيلة هين ، ولاننا لا نبشر حقيقة بالفضيلة الا حين نمارس الفضيلة .

الحرية هي فضيلة ، فكيف نمارسها هنا .

نسمع في بعض الاحيان كلاماً عن الحرية المخنوقة في لبنان .

هل هذا صحيح ؟

ان لنا من الحرية اضعاف ما نحتاج .

ليتنا لم نكن احراراً .

ليت يداً حديدية تشد على اعناقنا ، اذ ذاك ، فاما ان نختنق ، واما ان نتعتق .

اما هذه الحرية التي تشملنا فقد اضرت بنا . نقول ما نريد ، لذلك تفجرنا طوفاناً من كلام . فحيث توجهت انصبت في اذنيك قصيدة وتفرقع امام عينيك خطاب ، تركات ، تركات ، من خمور الالفاظ ، حولها الناس سكارى بالبلاغة والفصاحة .

وهناك الذين يحملون اقراصاً من بنسلين الحكمة ، اذ ان عندهم علاجاً لكل شيء . ويفهمون كل شيء ، عن كل شيء ، من اسرار الحرب الكورية الى تصدير الاثمار الحمضيـة . وفلسفتهم

تختصر بعبارة واحدة « الحكومة ــ فظاعة يا استاز » واحـــدهم يعنف الناس على الاسراف فيما هو يحكم عقدة ربطة باريسية ثمنها ثروة فقير ــ فظاعة يا استاز ويوقف سيارته في عرض الطريق فيما هو ينتقد حالة السير ، فظاعة يا استاز .

هؤلاء يعتقدون انهم قاموا بواجبهم نحو المجتمع كلما وصفوا علاجاً شاملاً ، شتموا حكومة ، او نطقوا « فظاعة يا استاز » .

على انهم ليسوا بخطرين .

الخطرون المجرمون هم الذين يسلكون الى الانتهازية ،طريق المثالية ، هؤلاء الذين تتهدج اصواتهم ثورة على نظام ، او قانون او ظلامة ، ثم تنعم اصواتهم اذ يتوسلون لخرق النظـــام وطبخ القانون وانزال الظلامة .

هذه الايدي التي تنقبض مهددة ، متوعدة ، مستثيرة النقمة على الفساد ، ثم تنبسط مستجدية مساهمة في اعمال الفساد .

وهناك فئة ، هذه التي تلوح بالشهادات الجامعية ، والالقاب العلمية ، وتتباهى بالثقـــافة ، وتعلن بكل تواضع ان البشرية خلفها بمراحل .

تجار كلام اقاموا نفوسهم معلمين ، يلقنون سواهم الوطنيـــة ، والفلسفة الاجتماعية والمثالية العقائدية ، وبايع بعضهم بعضـــاً ملوكاً للفكر .

فاماالعقائد فهي اما مستوردة رأساً،او عن طريق الترانزيت . واما الافكار فينبشونها بالجرفة ، من بطون الكتب في اي صفحة من اي كتاب علقت به الجرفة .

كأنما من شروط الوطنية ان لا تثبت العقيدة الوطنية بنا في هذا الوطن ، وكأنما من ضروريات الافكار عدم الفكر .

وبعد ان يتم رصف الكلام – لا فرق من اي كتاب تدحرج – يطوفون على الناس منادين بانهم فاتحون في دنيا الهداية عالماً جديداً .

كلنا ناقدون . كلنا ناقمون ، ولكن سفينة النجاة لن تبحر في اوقيانوس من زبد الاشداق ، ورغوة الافكار ، ولن تسير شراعاتها ارياح المنافقات .

خير لنا ان نبقى على اليابسة الصحراء ثابتة اقدامنا من ان نحاول ان نسبح في الضباب .

واريد ان اتحدث عن الرجل العادي .

اما الرجل العادي ، فلا ينادى بالامير ، ولا الشيخ ، ولا البيك حتى ولا استاذ .

الرجل العادي هو سائق الترامواي ، وبائع الخضار ، والحمال ، والفلاح وسائس الخيل . لقد فقد احترام النفس جمهور هذا الشعب .

لقد قتل رجولتهم موظف الحكومة الذي يدفن اوراقهم في درجه ، وصاحب المعمل الذي في يده ان يصرفهم ساعة يريد ، وصاحب الديوان الذي يبقيهم خارج الديوان ، وخادمة الزعيم التي تقفل الباب في وجوههم ، والمتنفذ الذي يقول لهم انتم لا شيء ان لم اطبع على جباهكم انكم من اتباعي . فصار المواطن اللبناني العادي يشعر انه امرؤ لا شأن له .

المواطن العادي هو احد السابلة ، غبار السجاد .

مسكين يقرع الابواب متسولا كرت توصية .

مستعطف ، يشكر كلما وهبوه بعض ما نهبوه .

ورقة تصويت تملأ صندوقة الاقتراع وتقرأ - غلطاً او صواباً - عند الانتخاب ، ثم ترمى وتبقى سنوات اربع مهملة بجعلكة في جانب الطريق .

من اهم واجباتنا ان نرفع المواطن العادي الى مستوانا رجلاً كان او امرأة .

واخيراً اود ان اذيع سراً عظيماً .

امس جاءني مهندس الماني يشرح عن مكنة جبارة جديدة اخترعها الالمان .

هذه المكنة تتلقف الانقاض التي تملأ شوارع برلين فتطحنها ثم تخرجها حالاً حجارة جديدة جاهزة للبناء .

سألت هذا المهندس كيف يذكر الالمان هتلر ، بالخير او بالشر ؟

اجاب : « هتلر مات ونسيناه ، ونسينا جورنغ وبسمارك وفريدريك الكبير ، والقيصر غليوم ، كلهم ماتوا . نحن مشتغلون بهذه المكنة التي تتلقف الانقاض وتصنع منها حجارة جديدة » .

قلت : « ان الدنيا متهافتة على اكتساب رضى الالمان . ولكن الالمان من يؤيدون ، اميركا وحلفاؤها ، او روسيا ؟ » .

اجاب : « الالمان يؤيدون الالمان » .

السر العظيم الذي اريد ان اذيعه ، هو ان هتلر وغليوم وبسمارك ماتوا .

السر العظيم الذي اريد ان اذيعه هو ان فخر الدين المعني مات، وبشير الشهابي مات ، وصلاح الدين الايوبي مات ، كلهم ماتوا .

السر العظيم هو ان فرنسا ليست لنا، اميركا ليست لنا، انكلترا ليست لنا ، روسيا ليست لنا .

انما الدنيا باجمعها تصبح لنا ان صرنا مثل الالمان ، « لبنانيين نؤيد اللبنانيين » ومشتغلين بمكنة تتلقف هذه الانقاض التي ملأت شوارعنا ، ونطحنها ونصيّر منها حجارة جديدة جاهزة للبناء .

أنا لبناني .. فأنا عربي

تلفن لي منذ ايام صديقي عبدالله المشنوق مقهقهاً : « كمشتك » قلت : ما الخبر ؟ اجاب : امامي خطاب لـك في « المقاصد الاسلامية الخيرية » نشرته ، وتقول فيه انك عربي . اين هذا منك اليوم في عقيدتك السورية القوميـة الاجتماعية ؟ سأنشر هذا الخطاب من جديد « وافضحك » .

ان كان هنالك من فضيحة فانا اتولى نشرها بنفسي . ان العروبة ــ وهي بعض الايمان في عقيدتنـا ــ تطهر من ادرانها و تصفو من رغوتها ووحولها حين تتجوهر في حقيقة علمية وتنتظم في وحدات واقعية فتصبح بناء لا « قعقور » خرائب مكومة .

واجهت الجمع في المقاصد الاسلامية الخيرية عامذاك ، وكلهم ذكور فبدأت خطابي « سيدا ... عفواً سادتي » . وبعد تلك الحفلة اصبحت النساء يحضرن الاجتماعات السنوية .

معظم الخطباء يعتذرون عن التطويل . اريد ان اعتـذر عن الاختصار . ارادوني ان اتكلم نصف ساعة . خطابي لا يتجاوز ربع الساعة . حين عتبوا عليّ لقصر الخطاب قلت لهم : «ربع ساعة خطابة مني ومنكم ايها المستمعون ربع ساعة تصفيق . »

بيد اني اخشى ان أسمع ربع ساعة خطابة وأسمع ربع سـاعة تصفير .

ذلك لانني سألتكم في صراحة قد تكون مؤلمة .

حين يقابل الغريبُ الغريبَ لاول مرة بحكم عقدة الكرافتة ، ويمشط شعره ويزرر سترته . في هذا المجتمع احسب نفسي في بيتي وبين اهلي فلا عجب ان جاء خطابي منبوش الشعر ،لابساً البيجاما .

هذا المحفل واضح العروبة واني رجل قد تخلى عن كل مـــا أدعيه في الحياة ،ولكني امدح نفسي بالاصرار على اني صافي العروبة .

حين شردتني الحياة عن كورنيشها العريض واسلكتني درباً فرعية ضيقة نائية وقذفت بي من الحاضرة الكـــبرى الى كهف مهجور ، لم انس حين دخلت الكهف ان اغرس على مدخله علم

العروبة وان انير سراجها في زاويته .

أمهد بهذا الكلام لاني ساقسو بالانتقاد . سأجور عليكم لانني واحد منكم .

هذا المجتمع هو اسلامي . كلية المقاصد هي اسلامية، في اسمها، ونزعتها ، واساتذتها ، وتلامذتها ، وتعاليمها .

لقد أدى الاسلام الى المدنية الف رسالة غالية ، من اجملها رسالة التسامح .

اني اجل الاسلام ، وكذلك اجلّ المسيحية . في منزلي نسخة عربية من القرآن الكريم، ونسخة انكليزية من التوراة المقدسة. حين اتوق الى ان اسمو بعاطفتي وتفكيري الى جو اثيري ، فقد اجوّد القرآن وقد اتغنى بالاسفار على حسب قرب اي من الكتابين الى يدي فكلاهما متساو في قربه الى قلبي .

لو انه اعطي لي شغف التمتع بروعة الخشوع في المعابد ، لما همني ان ركعت امام المذبح ، او امام المحراب .

الاسلام شاسع الآفاق وليس بمسلم من ينكمش في زاوية فيحمل جاره على ان ينكمش في زاوية .

العروبة قرة عين الاسلام ، ومن اشد الناس ولاء للعروبة اناس ما هم بمسلمين . فيا ايها الفتيان الذين هم اليوم الى الحياة واثبون ، حذار ان تجعلوا من سلوككم حافزاً لغير المسلمين الذين سكنوا دار العروبة ان يشعروا انهم ضيوف مكرمون، ولكنهم ليسوا من اصحاب الدار. واما الذين لم يدخلوها ، فاسمعوهم النداء بالصوت العذب ، والقول الجميل : « ادفع بالتي هي احسن ، فاذا

الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليّ حميم » .

ولا ريب ان في كل طائفة ، وفي كل بلد وأمـــة مجرمـين يقتاتون بالضغينة ويزدهرون في العداء . هؤلاء الضالون نراهم قبالتنا ولكننا نراهم كذلك على جانبينا لو تلفتنا يمنة ويسرة . وما نحن متطلعون الى آفاق جديدة ، اذ نقصر عليهم نظرنا . وما هو بعادل من يشير الى القبيح الذي يواجهه ولا يشير الى القبيح الذي يكاتفه .

واني اريد ان اضع روحي على كفي فبحث بصراحة وصدق ، موقف اللبناني الصميم ، الذي هو كذلك عربي صميم ، من لبنان والعروبة . نحن في هذا البلد لم نعتد الروية ، ولم نألف عمـــق التفكير ، ولم نمارس النزاهة العقلية . العقائد الكبرى ، كالشخصيات الكبرى ، ما هي بمواد اولية خالصة ، بل هي في معظم الاحيان مركب من مختلف العناصر ، بينها متناقضـات . الشخص الذي يوصف بكلمة ، ما هو في غالب الاحيان بشخص عظيم . والعقيدة التي تشرح بعبارة ، ما هي بعقيدة ذات بال .

ليس لبنان بقصيدة زجلية ، او موال عتابا . قبل ان يصبح لبنان دولة كان لبنان ولما يزل بعض ارواحنا . لبنان هو واقعي كقبضة من ذهب ، غريزي كحب الأم ، جميل كرؤيا .

انا لبناني اذاً فانا عربي . انا لبناني عربي ، اذاً فمن النكبـة علي ان تكون هذه القطعة من الدنيا ، من طوروس الى العريش ومن المتوسط الى الصحراء ، غير وحدة سياسية لا تتجزأ . غير ان النكبات على درجات . سيظل لبنــــان دولتي ودستوره

دستوري وعلمه علمي، ولن افكر بتغيير ما ولن اطمح اليه،ولن اقبل به حتى اسمع اصوات المطالبة بالتغيير ترتفع من باحات بشراي وزغرتا ،والنداء للوحدة ينطلق من اجراس كنائس بكفيا ودير القمر. وفيما انا ارهف اذني لسماع هذه الاصوات اعلم علم اليقين انني اخدم العروبة بان ابقى لبنانيا صميما ، اضع كتفي الى اكتاف جيراني واشد اواصر الاخوة ما بيني وبينهم .

ان سمو الخلق يبلغ ذروته حين لا يضل الرجل عن الجمال فيما يستقبحه ، والقبح فيما يستحبه . وان التفكير يبقى عاديا حتى يضع المستقرىء امام عينيه مجهراً يريه في اللون الواحد كل اظلة اللون . اما ان نندفع في التعصب فيلون نظرنا ما نرى ، حينئذ نصبح كدراويش الهند يرقصون سكارى بخمر يستقطرونها من جنبات نفوسهم،وعبدة اوهام يتمتعون في نعمة العيش - ولكن الاوهام لا تدوم .

ومن الاوهام ان تعتقدوا ايها القادمون على الحياة ان لبنان خرافة ، وان تجهلوا انه من اشد الناس ولاء للبنان ، من هم من اشد الناس ولاء للعروبة .

هنا اقف غير فخور بنفسي . هنا اقف فابتهل الى الله ان يمنحكم ايها الفتيان الجرأة التي احس انها تعوزني . ليتني اعطيت الاقدام فانزل عن هذا المنبر بطلاً ، او احمل عنه شهيداً . ولكن الكلمات التي اغص بها انتم تسمعونها . والقول الذي اخاف ان انطق به ، انتم تفهمونه . نساء اليهود تحمل السلاح وتقاتل ، فاي سلاح تحمله نساؤنا وكيف تقاتل ؟ نساء الدنيـــا أوتين الحرية

والمساواة والعلم، وهن ينشرن الظرف واللطف والانوثة والرقة. فما هو الدور الذي تلعبه نساؤنا؟ أمم الارض يساهم في بنائها وازدهارها مئة بالمئة من شعبها، فما الذي يساهم به خمسون بالمئة من شعبنا؟ من العار ان تبقى المرأة حيث هي. ومن الخسران ان نهدر نصف ثرواتنا وقوانا. هل فيكم جسور يحمل المشعل، وذو بأس يقول الكلمة التي أجبن ان اتفوه بها؟ هل منكم فدائي يطمح ان يكون بطلاً ولا يخاف ان يمسي شهيداً؟ هل منكم من يمزق بيديه ما يجب ان يمزق؟ لئن كان الجواب نفياً فما اشدك ظلاماً يا صباح الغد!!

واخيراً ايها الفتيان الاحباء، كلمة لا يوحيها حب الوعظ ولا تمليها الثرثرة.

الحياة كريمة، جوادة. الحياة تعطي اكثر مما تأخذ، فلئن جادت الحياة عليك بطيباتها فانعم بها بان تشاطرها سواك. نشوة السكر لذيذة. وهج الشهوة جميل. الظفر يكهرب الحياة، ولكن ليس في الدنيا من شعور أبعث للزهو من سرورك بتضحية تقوم بها او عطاء تبذله! لئن جادت عليك الحياة بالطيبات فانعم بها بان تشاطرها سواك.

كذلك الحياة قاسية. الحياة ظالمة ومجرمة. هي تأخذ اكثر مما تعطي. امامكم في السنين المقبلة ايام مريرة. لقد سلحتكم هذه الكلية بالعلم والدراسة، وصقلت اخلاقكم وشددت عضلاتكم. ضعوا في ايديكم سلاحاً غير منظور. لئن ضنت الحياة عليك بالطيبات فروها بالسراب. كهرب عقلك بمس من الجنون. حين

غني بخيبة ، انظم بيتاً من الشعر ، او اركض نصف ميل . انشد اغنية . احص الملايين من الليرات الذهبية التي لا تملكها . اقطف زهرة . اكسر صحناً . انفخ دولاب اوتوموبيل . البط بغلاً . اقم لنفسك عرشاً وبايع نفسك بالعرش . حذار حذار ، اذ يصيبك الفشل ان تنقم على نفسك ، او دهرك ، او قريبك ، او صديقك .

لئن جادت الحياة عليك بالطيبات فانعم بها ، بان تشاطرها سواك . ولئن ضنت الحياة عليك بطيباتها فروها بالسراب .

القرميدة المكسورة

« دير مشموشة » يقع تحت جزين في جنوب لبنـان . والحفلة يحضرهـا فخامة رئيس الجمهورية الشيـخ بشاره الخوري . حول الدير جمـوع ترقص وتلعب بالسيف والترس . وامام الجموع شخصيات منتفخة تعرف بالزعمـاء . والقاعة محتشدة ، والخطبـاء يسبحون ويمجدون ويبخرون ، والتصفيق يتعالى كلما ذكر اسم رئيس الجمهوريـة اللبنانية . على بعد مترين من الرئيس ــ وقد توسط حلقة من مطران ورهبان وموظفي الحكومة ، ألقيت « القرميدة المكسورة » .

صاحب الفخامة ، حضرات الآباء المحترمين ، سيداتي وسادتي .

لساعة خلت ، كانت في سقف هذا الدير قرميدة مكسورة . اريد ان اعترف انني انا الذي كسرتها . اريد ان اعترف ان عواطف عنيفة في نفسي كانت تتاوج في صباي ، وان اعنفها كان بغضي للمسيحيين .

كنت في ذلك الحين ، كأكثر غلمان الدروز ، يبهجني ان اسمع بقتل مسيحي . وليلة امس ، ضافنا في بعقلين رفاقي الثلاثة : بطرس سماحه وميشال سماحه وبطرس عواد . ولقد أكد لي هؤلاء الضيوف – اخوتي الثلاثة – انهم في صباهم كانوا يفرحون لامور ثلاثة : تعطيل المدرسة ، وقبض الخرجية ، والسماع بقتل درزي .

ها نحن اليوم نجتمع في هذا المحفل ، وقد سلكنا اليه طرقاً متفرقة . وها نحن ، وقد بلغنا هدفنا – هذه الروضة الثقافية الروحية ، لم يقاتل بعضنا بعضاً بسبب الدروب المختلفة التي سلكناها للوصول الى هذا الهدف . ولكننا في زمن الغباوة ، يوم كنا

جهلة عمياً ، كنا نتباغض ، ونتقاتل ، ونتطاحن بسبب الطرق المختلفة التي نسلكها للوصول الى الهدف الواحد ، هذه الدروب التي نسميها الاديان ، وهذا الهدف الاسمى - الخالق العظيم .

اما القرميدة المكسورة فقصتها انني مررت بهذه الناحية خلال الحرب الاولى في طريقي الى جزين، وكنت يومئذ غلاماً، فسألت رفيقي المكاري عن هذه البناية الفخمة في الوادي ، فقال لي وهو يصرف باسنانه : « دير مشموشه ! » فصوبت نحو الدير نظرة عداء فانكسرت القرميدة. ولئن صعد الآن احد منا الى السقف فوجده سليماً ، فلأنني إذ اطللت على دير مشموشه هذا ، منذ ساعة ، اي بعد ثلاثين عاماً ، تطلعت الى السقف ثانية ، بنظرة حب وحنان ، فالتحمت القرميدة المكسورة وعادت سليمة .

بين الانسان والحيوان فوارق كثيرة ، ولعل اظهرها ان الانسان يتبدل خلال ربع قرن ، والحيوان لا تتبدل عاداته في عشرات السنين . ونحن ، في هذه البقعة الجنوبية من جبل لبنان اثبتنا اننا بشر على الرغم من اننا لم نستبدل المحراث بالتراكتور، ولم تكثر القصور التي بنيناها خلال هذه السنين ، وعلى الرغم من انه ليس بوسعنا ان نزدهي بمشاريع عمرانية. ولكننا تغلبنا على ماهو افتك بنا من الفقر المادي والعلمي والعمراني ، وحققنا امنية اسمى من الثروة والرفاه .

هنا كانت الطائفية على أقذرها وأفتكها ، وهنا قتلناها ، ودفناها - الى الأبد دفناها.

ان في وسعنا ان نباهي سائر انحاء لبنان ، وان ندعو اخواننا

في المدن والارياف من جمهوريتنا ليتخذونا مثالاً للالفة والتسامح والاخوة .

حين اغتربت عن لبنان عام ١٩٢٥ كانت عصاباتنا من دروز ومسيحيين تقطع الطرق حول هذه الهضاب والاودية للفتك باي فرد من الطائفة المعادية . كان افراد تلك العصابات ابطالاً نعجب بهم، ونفتح لهم منازلنا ومعابدنا ملجأ . يا ويل قوم ابطالهم مجرمون !

في تلك الايام أقمنا للبغضاء اصناماً ، وعبدناها . غير انه كان منا اناس لا يسمون المجرمين ابطالاً، ولا يدعون التناحر الطائفي تقوى وعبادة . ولقد كان لي حظ حضور حلقة في بيروت بعض اشخاصها ميشال زكور ، وبشاره عبد الله الخوري ، وجبرائيل نصار ، وامين تقي الدين، وسليم تقلا، وكامل وفؤاد حميه، ووديع واسعد عقل . كانوا يجتمعون في مقهى تباريس - هؤلاء كانوا يعرفون انهم وجيرانهم مواطنين ومواطنين فحسب، وكان يؤلمهم مقتل المسيحي كما يؤلمهم مقتل الدرزي وكانوا يفهمون ان في التشاحن على اختيار اي سبيل نسلكه للوصول الى الله ، كفراً بالله . هؤلاء الرجال والوف مثلهم في لبنان ، من مقيمين ومغتربين ، هم الذين طهّروا لبنان من جرائم الطائفية وصهروا عناصره الدينية ، فصار الواحد منا يشعر بانه مواطن لا درزي ولا مسيحي .

سنة البشر التغير . ولكن التغير قد يكون من سيىء الى اسوأ او من حسن الى سيىء ، او من سيىء الى حسن . ونحن فيما نفخر بالتبدل الجميل من التعصب الديني الى التسامح ، يجب ان نعترف اننا في سائر مناحي الحياة قد تصدعنا حتى الانهيار .

موائدنا مثقلة بالطعام ، وكواراتنا فارغة . نقاتل من اجل التوافه جارنا القريب وما هو بعدو ، ونغفل عن قتــال عدونا الحقيقي وحر انفاسه يلفح وجوهنا . تستعبدنا الاناقة ، ويستهوينا الثراء اياً كانت طرقه . من ايدينا تفوح رائحة الرشوة ، ومن اناملنا يقطر دم الفقير. نحن نعيش في حياتنا الاقتصادية والسياسية والاخلاقية في سكرة غطرسة - وليس بعد السكرة الا وجع الرأس . نتبع القوي الذي ينفعنا لانه ينفعنا ويؤذي جارنا . نريد ان تتقلص آفاقنا حتى يضيق عالمنا فنبدو فيه كباراً .

في زمن يجب ان نماشي به سنة النشوء والارتقاء ونرفس عنا العادات القبيحة ، احيينا نحن ابناء لبنان بلد العلم والنور ، احيينا عادات في الافراح والمآتم وشتى المناسبات ، عادات نتأدب ان ان سميناها عادات همجية . حين يفتقر الواحد منا او يضعف ندوس عليه لانه فقير ضعيف .

نحن في لبنان نعرف ان نعيش . بل لا ينقصنا لنحذق فن العيش على أتمه الا ان نتعلم كيف يجب ان نموت . نموت مستبسلين من اجل عشرة قروش ، او وظيفة ، او رأس بنــدورة ، او شتيمة . ولكن ليست لنا الجرأة الادبية لان ننفوه بكلمة قاسية ، وليست لنا الشجاعة الجسدية لان ننهض للمطالبة بحق عام . ماهو بكبير مَنْ تستفزه الصغائر . طريق المجد منعت عن الرياء والتملق . ومن قضى حياته منحنياً امام القوي لا تلمع الشمس على جبينه .

هذا قليل من كثير لا يجمل الآن قوله ولا انتم تجهلونه . غير اني لا اعدد هذه المصائب لاكون رسول اليأس ،

لا بل انني متفائل . فمتى بلغ السائر قعر الوادي فلا يبقى امامه الا الصعود .

اعود بكم الى عام ١٩٢٥ يوم تذابحنا هنا مسيحيين ودروزاً . كانت ايام سوداء ولكنها مضت الى الابد . وكل هذه الآفات التي لا تحسن في نظرنا اليوم ستغيب الى الابد . ذلك لانه كما كانوا في عام ١٩٢٥ حلقات من رجال ناقمة على التعصب الطائفي ، كذلك في هذا اليوم ألوف من الرجال يرون عبر هذا اليوم . في لبنان اليوم ألوف من حلقات شبيهة بحلقة تباريس ، وقوة هذه الحلقات في كونها غير منظورة وغير مسموعة .

سنة الحياة هي التغير والتبدل .

كنا في ليلة عيد رأس السنة عام ١٩٤١ في مانيلا عاصمة الفيلبين في نعمة وزهو وطمأنينة . وصحونا في اليوم الثاني واعلام الغزاة فوق رؤوسنا ، وامتعتنا ، واملاكنا ، وحياة كل منا رهن اشارة . لقد عشنا اربعين شهراً بين الدمار والقتال والجوع ، ووجدنا ان اثمن ما يتسلح به الانسان للطوارىء هو حب جيرانه واحترامهم اياه .

في طقوس الرهبنة المسيحية عادة من اسمى العادات ، وهي ما يسميه الكهنة الرياضة الروحية . جميل بنا ان نأخذ عن الرهبان هذا الطقس الديني فيخلو الواحد منا الى نفسه يعرفها صامتاً . إذ ذاك نكتشف اننا في شتى مناحي الحياة ، في هذا البلد ، مشينا القهقرى ، وانه يجب علينا ان نصحو من هذه السكرة . اذ ذاك نكتشف اننا في لبنان نعيش في صالون الحياة تبهر عيوننا الانوار

التي اضأناها فوق رؤوسنا فلا نرى العتمة التي تكتنف المنزل وتملأ سائر الغرف .

ايها السيدات والسادة، حذار حذار ! ماذا اعددتم للطوارىء؟ بعض البراكين يرعد ثم ينفجر ، وبعض البراكين ينفجر من غير ان يرعد .

ليس بيننا من لم يكسر قرميدة في حياته ، واني وقد خبرت هذا الجرم اجد ان في لحم القرميدة المكسورة نشوة لذة تفوق الجذل البهيمي الذي يثيره في النفس كسرها .

حدثني الكاهن الذي عرّقد

خطاب لم يلق . اعد ووزع مناشير في ليل ٨ تموز . استجوبني الامن العام بشأنه في اليوم التالي . ودخل السجن بسببه عشرات الشبان . ولكنه بعد ذلك ، صار يلقى علناً وينشر في الصحف .

تلقاني صبيان الحي بصراخ الهزء حين ترجلت ، وراح احدهم يتباهى مذيعاً ان التاكسي اسمها فورد ، واعلن ترب له ان لونها رمادي ، فباضح جمهورهم باخباري ، قبل ان اسألهم ، ان الكاهن ليس هناك . بل ان احدهم تسلق السلم وفتح باب العلّية من غير ان يطرقه ثم أطل من نافذتها ضاحكاً: «ارأيت ؟انه غيرموجود»

ذلك لان شياطين الحي الصغار صاروا يعرفون عمن اسأل واصبح يروقهم اني لا أجد من افتش عنه . ولعلهم لمحوا من تذمري وألم خيبتي ما استثار فيهم السادّية، فجاء جذلهم على نسبة ما تجلى علي من زعل وضياع أمل .

فلقد كانت تلك المرة الرابعة التي قصدت فيها الى رجل الدين لاستطلعه السر الرهيب .

وفي المرة الخامسة توجهت اليه ليلاً وعلى موعد ، فكان هناك .

وحالاً امحت من ذهني صورة رسمها خيالي ، فلم اجد نفسي امام شيخ متداع ابيض اللحية ، ولم اسمع صوتاً متهدجاً ، ولا صرعتني مظاهر الوقار وكلمات ابوة توحيها حصانة الكهنوت .

وجلسنا تحز مسامعي توافه الاحاديث التي تعود الناس مبادلتها فور اجتماعهم . وطالت النزهة الكلامية على شاطىء الموضوع ، وبرح بي القعود على عتبة باب جئت لافتحه ، فوثبت الى الهدف مقاطعاً المحدثين قائلاً : حدثني يا محترم عن ليل ٨ تموز ١٩٤٩.

وغاظني من رجل الدين انه لم يتلبس حالاً بظاهر التهيب ، بل بدأ الكلام بشيء من غير الاكتراث . ولكن صوته ولهجته وخشوعه وانفعاله بل وبكاءه ، كلها تماوجت مع وقائع ما كان يرويه ، فكأنه عبقري يعزف من موسيقاه قطعة رائعة على البيانو ، فدغدغت انامله اصابع العاج اولاً بعفوية لاتبالي ، وتوالت الألحان تتأرجح وتتسامى متجانسة متضاربة متوافقة حتى بلغت ذروة موسيقى من غير هذه الدنيا ، فاذا نحن في العلية نكاد لا نسمع ما يقول ، ولا نرى البيانو ولا اللاعب ولا نعي الالحان ، بل شعرنا ان جدران الغرفة انفتحت وارتفعت ارضاً بمن فيها ، فاذا نحن و « سعاده » في السجن ، في الطريق ، في الجيب ، على الرمال ركّع ، في تابوت خشبي ، في الكنيسة ، في المقبرة ، في حفرة من الارض ، في مسمع الدنيا ، بين المفتربين ، في القصور ، في المحكمة العسكرية ، في المفوضيات ، في غصة القلوب ، في عبسة المغاور ، في لوعة المعاقل ، في رصانة التهذيب ، في هدوء البطولة ، في عزة الصراع ، بين يدي الكبر ، امام الجلادين ، في طمأنينة المؤمن ، في كهف الغدر ، حراب تطارد المجرمين ، اعلام تصفق للجيوش ، زوبعة تمحق ، وصرخة تعكس موكب التاريخ .

وتناول رجل الدين ورقة من مطاوي جلبابه الاسود الفضفاض

منتزعة من دفتر مدرسي، وهمّ بقراءتها، فاعترضته وقلت : اسمعني حديثك لا تقرئني اوراقك ، ولو كانت مذكرات .

فراح يتكلم :

حين فتحت الباب على صوت القرع الشديد في منتصف ذلك الليل ، وجدت نفسي امام ضباط من الجيش يطلبون الي ان ارتدي ملابسي واحمل صليبي وعدة الكهنوت بسرعة . قلت : ما الخبر ؟ اجابوا : سنعدم الخائن انطون سعاده هذه الليلة ، ونريد ان تعرّفه وتقوم بمراسم الدين قبل اعدامه .

قلت : ان امراً كهذا لا يسعني ان افعله ، آتوني باذن من سيادة المطران ، هكذا ينص قانوننا الكنائسي . قالوا : ليس لدينا من وقت ، افعل هذا على مسؤوليتنا نحن . فاعتذرت من جديد . وراحوا يلحون علي مرددين ان خرق النظام الكنائسي هو اقل ضرراً من ان يرسل مسيحي الى الموت غير متمم واجباته الدينية .

واخيراً أذعنت بكثير من التردد والحيرة، وركبت سيارتهم في طرقات تعج برجال الامن من جنود وبوليس ودرك واسلحة مشرعة ، واطللنا على سجن الرمل ، فاذا هو منار من الداخل والخارج ، ونزلنا حيث كان ضباط آخرون بانتظارنا .

واقبل علي مدير السجن يعرفني الى نفسه ، واخبرني ان هذا هو الاعدام الثالث عشر الذي مر به، وان الامر بسيط . فأجبته : « لقد مضى علي ثلاث عشرة سنة في الثوب الكهنوتي ، وهذا اول اعدام سأشهده » وكان الطبيب الذي اشترك معنا في الحديث

مثلي ، لم يشهد اعداماً في ما مضى .

وزاد مدير السجن فقال : ان هذا المحكوم الخائن انطون هو رجل خائن ، وكافر ملحد يبشر بالكفر والالحاد، انه لن يأبه لك يا أبانا هذا الخائن الملحد الكافر .

ودخلنا ، حيث كان الزعيم ، محبساً من الغلو نعته انه غرفة ، فوجدناه مفترشاً بساطاً من قذارة ورقع . وكان هذا الفراش اقصر من قامته ، فجعل من جاكيته وصلة بين الفراش والحائط كي لا ترتطم به قدماه .

وكان نائماً نوماً طبيعياً ، ورأسه على ذراعـــه اليسرى التي جعل منها بديلاً عن مخدة لم تكن هناك .

وايقظناه فنهض حالاً ، وبادرنا السلام ، وخصني بقوله: «اهلاً وسهلاً يا محترم » فابلغناه انه لم يصدر عنه عفو وان الاعدام سينفذ به حالاً . فشكرنا باسماً رزيناً،واستأذن بلبس جاكيته التي كانت مطوية تحت قدميه ، فاذنوا له ، فشكرهم من جديد ، ولبسها .

وخلوت به ، وسألته ان كان يود ان يقوم بواجباته الدينية ، فاجاب : لم لا ؟ وطلبت اليه ان يعترف ، فاجاب : ليس لي من خطيئة ارجو العفو من اجلها ، انا لم اسرق ، لم ادجل ، لم اشهد بالزور ، لم اقتل ، لم اخدع ، لم اسبب تعاسة لاحد .

وبعد ان فرغت من المراسيم الدينية ، تركنا الغرفة فكبلوا يديه ، وخرجنا الى مكتب السجن .

هناك طلب ان يرى زوجته وبناته ، فقيل له ان ذلك غير ممكن . وقدموا له ترويقة فاعتذر شاكراً ، ولكنه قبل فنجاناً

من القهوة متناولاً اياه بيمناه واسنده بيسراه . وكانت تسمع للقيد رنّات كلما ارتطم بالفنجان .

وكان الزعيم يبتسم صامتاً هادئاً مجيلاً عينيه من وجه الى وجه كأنه يودعنا مهدئاً من روعنا . هنا انفجرت انا بالبكاء ، وبكى معي بعض الضباط ، بل ان احدهم اجهش وانتحب .

وبعد ان شرب القهوة ، عاد يصر على لقاء زوجته وبناته ، فسمع الجواب السابق .

وسئل لمن يريد ان يترك الاربعماية ليرا التي وجدت معه ، فاجاب انها وقطعة من الارض في ضهور الشوير هي كل ما يملك ، وهو يوصي بها لزوجته وبناته على التساوي .

وطلب مقابلة الصحافيين ، فاخبروه ان ذلك مستحيل . فسألهم ورقة وقلماً ، فرفضوا . قال : ان لي كلمة اريد ان ادوّنها للتاريخ . فصرخ به احد الضباط منذراً : « حذار ان تتهجم على احد ، لئلا نمس كرامتك » . فابتسم الزعيم من جديد وقال : انت لا تقدر ان تمس كرامتي ، ما اعطي لاحد ان يهين سواه ، قد يهين المرء نفسه ، واردف يكرر : « لي كلمة اريد ان ادونها للتاريخ ، وان يسجلها التاريخ . »

فسكتنا جميعاً ، في صمت يلمس سكونه ويسمع دويه .

اصارحك انني كنت في دوار من الخبل ، ومن المؤكد انني لا اعي كل ما سمعت ، ولكن الراهن اني سمعته ، سمعته يقول : « انا لا يهمني كيف اموت ، بل من اجل ماذا اموت . لا اعد السنين التي عشتها ، بل الاعمال التي نفذتها . هذه الليلة سيعدمونني ،

اما ابناء عقيدتي فسينتصرون ، وسيجيء انتصارهم انتقاماً لموتي . كلنا نموت ، ولكن قليلين منا من يظفرون بشرف الموت من اجل عقيدة . يا خجل هذه الليلة من التاريخ ، من احفادنا ، من مغتربينا ، ومن الاجانب . يبدو ان الاستقلال الذي سقيناه بدمائنا يوم غرسناه ، يستسقي عروقنا من جديد .

ومشينا الى حيث انتظرتنا السيارات ، والزعيم ماشٍ بخطى هادئة قوية يبتسم . انه لم ينفعل ، كأن الاعدام شيء نفذ به مرات عديدة من قبل . انه لم ينفجر حنقاً او تشفياً . انه لم يتبجح شأن من يستر الخوف .

في تلك اللحظة وددت لو خبأته بجبتي ، لو تمكنت من اخفائه في قلبي او بين وريقات انجيلي . ان عظامي لترتجف كلما ذكرته . وحين خرجت الى الباحة رأيت الى يميني تابوتاً من خشب - من خشب الشوح لم يخف الليل بياضه . وتطلع الزعيم الى نعشه فلم تتغير ملامحه ولا ابتسامته .

وقبل ان يرقى الجيب ، طلب للمرة الثالثة والاخيرة ان يرى زوجته واولاده . وللمرة الثالثة والاخيرة ، سمع الجواب نفسه . فتبينت ملامحه . وفي تلك اللمحة العابرة فقط من عمر ذلك الليل لمحت وميض العاطفة خلال زوبعة الرجولة .

وسارت الجيب بالزعيم يحف به الضباط وخلفه تابوته ، وقافلة سيارات وشاحنات من ورائه وامامه ملأى بالجنود المسلحة . ولعل مساً من البله اعتراني ، فبدا لي ان تنفيذ الاعدام سيؤجل ، او ان عفواً سيصدر . سيطر عليّ هذا الوهم فخدرني ، حتى انحرفنا

عن الطريق العامة الى درب ضيقة بين كثبان . ووقفنا في فجوة بين الرمال كأنها فوهة العدم .

وقفز من بينهم ، مكبلاً، الى عمود الموت المنتظر ، فاقتربوا منه ليعصبوا عينيه ، فسألهم ان يبقوه طليق النظر ، فقيل له : القانون. اجاب : انني احترم القانون .

واركعوه وشدوا وثاقه الى العمود . وكأن الحصى آلمته تحت ركبتيه فسألهم ان كان من الممكن ازالة الحصى ، فازالوها، فقال لهم : «شكراً»، «شكراً»، رددها مرتين ، وقطع ثالثتها الرصاص

فاذا بالزعيم وقد تدلى رأسه وتطايرت رئته اليمنى ، وتناثرت ذراعه اليسرى ، فلم يعد يصل الكف بالكتف الا جلدة تتهدل .

وكوموا الجثة في التابوت ، وتسارعت القافلة نحو المقبرة . وهناك كادوا يدفنونها من غير صلاة لو لم يتعالَ صياحي . اخيراً قالوا لي : « صلّ انما اسرع ، اسرع ، صلّ من قريبو » .

ودخلنا الكنيسة ، ووضعنا التابوت على المذبح ، ورحت اصلي ، والدم يتقطر من شقوق الخشب ، ويتساقط على ارض الكنيسة نقاطاً نقاطاً ، ليتجمع ويتجمع ثم يسيل تحت المذبح .

وخرجنا من المعبد ، ووقفت امام بابه اواجه الفجر الذي أطل ، واناجي الله ، واسمع رنين الرفوش ترتطم بالحصى وتهيل التراب ، وترتطم بالحصى وتهيل التراب » .

بذا حدثني الكاهن الذي عرّفه .

اقول لك ان تراب الدنيا لن يطمر تلك الحفرة .

اقول لك ان رنين الرفوش في ذلك الفجر سيبقى النفير الداوي ليقظة هذه الامة . اقول لك ان منارة الحياة قد ارتفعت على فوهة العدم .

برنيطة من كفرشيما

النادي صغير ، وبلدة « كفرشيما » صغيرة. وحفلة ناديها هي الحدث السنوي تترقبه البلدة واصدقـاء البلدة . جوها مرح حماسي ، فبعض الحضور شربوا نخب نجاحها قبل الحضور اليها .

غريب كيف تشتبك في مخيلة الناس الاماكن والحوادث . فاني ان ذكرت الشويفات مثلاً ، تسارع الى ذهني اول مسبحة دين تعلمتها هناك في طفولتي . وان قيل « بعبدا » لاحت امام عيني عربة الباشا التركي ، ودوّى في سمعي نفير بورجي العسكر . وان قالوا كفرشيما ذكرت البرنيطة ، البرنيطة التي باعني اياها منذ عشرين سنة في « الفلبين » رجل من كفرشيما - حليم كنعان ، فدفعت ثمنها كل ثوروتي حينذاك ١٢ دولاراً . ثم وضعتها على رأسي وانصرفت الى الاوتيل فعلقتها على حائط غرفتي . وهي لا تزال معلقة هناك .

وغريب كذلك ، أنّ كيف تلفتّ في ارض هذا الوطن ، تجد في كل ضيعة ، وفي كل مدينة ، وفي كل دسكرة رجلاً يقف كل جهوده او بعض جهوده على خدمة مواطنيه وجيرانه .

لو ان البرنيطة التي باعني اياها رجل من كفرشيما اسمه حليم كنعان ، لو انها الآن على رأسي ، لرفعتها احتراماً لرجل آخر من كفرشيما اسمه اديب الفتى - رئيس هذا النادي .

ولقد كنا في الصغر ندعو الاجنبي « ابو برنيطة » . وليلة امس دعيت الى عشاء حضره بريطانيون واميركيون - هو ناد موهوم سموه : Hate the foreigners club اي نادي بغض الاجانب ، وغايته الدعاب والمرح ومحو النقمة على الاجانب من النفوس ، ان كانت هنالك . نقمة لذلك آثرت ان اتحدث عن « نحن والاجانب » .

ولقد يتبادر الى الذهن ان هذا الموضوع حساس ، يجب ان لايعالج من على منبر .

نحن في لبنان ، هل نحن جماعة فكر وتسامح ورصانة ؟ ليس في مناطق العقل منطقة حرام . عرائس الفكر لا تلبس الحجاب . وبرغم هزء الهازئين فنحن في لبنان كنا ولا نزال وسنبقى بلد اشعاع . اما الناقمون منا الذين توترت نفوسهم وماجت ارادتهم ، فهم الذين يأنفون ان يبقى هذا الاشعاع شرارات تطفئها العتمة ، ولا يشرئب موجة وضاءة تحرق الظلمة وتسطع كوكبا .

ليس في الدنيا موضوع نخاف بحثه ، لا مسمعين ولا مستمعين . وليس الاجانب بيننا باسيادنا ، ولا هم اعداؤنا حتى وليسوا هم ضيوفنا . ونحن هنا قد خبرنا معنى اللفظة « اجنبي » سلباً وايجاباً . عرفناها ومئات الالوف منا اجانب في مغتربات ، وعرفناها في ارضنا والوف الاغراب ، اجانب بيننا .

ونحن نعلم ان الانسان ما هو بحيوان تحفزه بهيمية المادة فقط ، فهو حين شرد عن ادغاله ، في التاريخ القديم ، او هجر وطنه ، في التاريخ الحديث ، لم تكن حاجات العيش الملحة وحدها التي

تحدوه . بل كان، ولا يزال ، يحب الاستطلاع ويتحدى المجهول، فكان فاتحاً ومستعمراً ، وسائحاً ، ومتفرجاً ، وطالب ثقافة في آن واحد .

ونشبت بين الاجنبي الفاتح والمواطن المقهور ، معارك ، استعملت فيها كل الاسلحة المادية والروحية . فكان الاجنبي المستعمر المستغل ، وكان الاجنبي المبشر المثقف ، وكان التاجر المسالم ، او التاجر الشجع. ونشأ في المعسكر المقابل المجاهدالبطل المقاوم ، او الضعيف المستنيم ، او المرتزق الذي همه العيش لا يأبه كيف جاءت وسائله . وكان هنا وهناك خليط من كل هؤلاء .

واليوم وهذه الدنيا تصغر وتتقلص ، واليوم وفي طبيعة بلادنا ، وجغرافيتها ، ما يجعل هذه الامة منسجمة مع سواها، اومتضاربة فما هو الموقف الذي يجب ان نتخذه من كل ما هو او من هو اجنبي؟

يجب ان نطرد الضعف والخوف من نفوسنا . الخائف هو ابداً خاطىء التفكير . ان مئات السنين من الاستعمار وخيبات كبرى نزلت بنا ، ولدت في نفوس الكثيرين منا ، هزالاً في الايمان . هذا الضعف يتجسد احياناً في ميوعة يقولبها كل اناء . وهذا الضعف يرفه عن نفسه احياناً في اناشيد من التبجح والمباهاة . وهذا الضعف يرسب في بعض الاحيان وحلاً من تعصب ونقمة وحقد على كل ما هو اجنبي . ليس الاجنبي بسيدنا ولا هو عدونا حتى ولا هو ضيفنا . ان البشر في سيرهم الحضاري نحو الاسمى والاكمل والاجمل ، وحدات قومية اجتماعية ، كان لا بد لهم من التعامل والاختلاط ، وكان لا مفر لهم من الاصطدام ، كما كان

لا مفر من التفاهم ، والتسويات . ونحن نساهم في بناء هذه الانسانية الشاملة حين نطلب القوة في نفوسنا اولاً ، وحين نرسخ هذه القوة في مجتمعنا ، حتى تتوفر فتنطلق فعالية انسانية . اذ ذاك لانكره الاجنبي لاننا لا نخافه ، واذ ذاك لا نخضع للاجنبي لاننا لا نخافه . اذ ذاك لا نتهافت على « دفاع مشترك » في استسلام الزحفطون ، ولا نرفس الدفاع المشترك في قرطزة العنجهون .

غير ان هذه القوة – التي هي وحدها ضمان التعامل مع الاجنبي على الصعيد الانساني الصحيح – لن تأتينا ان نحن بقينا في هذه اللحظات الحاسمة ، وفي اشداق هذه المخاطر متناثرين ، متخاذلين ، متخاصمين . ان ضعفنا في الميدان العالمي امام الاجنبي ، وامام العدو هو في جوهره ضعف الشركاء المتخاذلين المتخاصمين ، اكثر منه ضعف الذين تنقصهم قوة الذات على الصعيد الفردي . وان فينا قوى هنا ، وعبر البحار ، لا نجندها ولا نعبئها لان تخاذلنا وتخاذلنا وتخدرنا لا تستنفر هذه القوى ولا توحي لها الجهاد .

اريد ان احدثكم عن احدى هذه القوى ، ماذا فعلت حين اوحي لها الجهاد . كان ذلك منـــذ خمس سنوات – عام ١٩٤٨ وكنت مدعواً الى عشاء عند سيدة من كفرشيما هي السيدة وديعة هاشم حماده . كنا تلك الليلة في « مانيلا » حول صينية كبة ، حين رن التلفون – نيويورك على الخط اخذت السماعة ، واصغيت الى صوت كميل شمعون ، مندوب لبنان في منظمة الامم : التصويت على تقسيم فلسطين بعد اسبوع ، ويجب ان نقنص صوت مندوب « الفلبين » ، في منظمة الامم . وكان رئيس جمهورية الفلبـــين

« مانويل . ا . روهس » رجلاً ربي في بيت وديعة هاشم حماده ، حنت عليه فتى فقيراً ذكياً طالب حقوق . كان يناديها « امي » وكانت تدعوه تحبباً « مانولين » . اني اراها الآن وسماعة التلفون في يدها تخاطبه : بربك يا « مانولين » . اني اراها الآن في تلك الليلة وانا وزوجها المرحوم كامل حماده نركض نحو السيارة لمقابلة رئيس الجمهورية الفليبينية . اني اسمعها تستوقفنا مداعبة مشيرة الى التلفون الذي تلقيت منه كميل شمعون « يا عيب الشوم ، رجلان من بعقلين يسوقهما رجل من دير القمر » .

ان الخطاب الوحيد الذي القي قبل تقسيم فلسطين في منظمة الامم عام ١٩٤٨ القاه كارلوس . ب . روميلو مندوب الفلبين ، ورئيس منظمة الامم فيما بعد - ان ذلك الخطاب القي ، على الاكثر ، بسبب امرأة من « كفرشيما » .

هذه قوة ، احدى قوانا ، فعلت . انه لم يقل لي شيئاً غريباً ، ولا شيئاً جديد ذلك الذي قال « ان فيكم قوة لو فعلت لغيرت وجه التاريخ » .

يا حضرة الرئيس ، ايها السادة .

موضوع خطابي نحن والاجانب . ولكني بدأته بحكاية برنيطة باعني اياها رجل من كفرشيما . وانتهى بخطاب في منظمة الامم أوحته امرأة من كفرشيما .

موضوع خطابي الصحيح :

من كفرشيما الى كفرشيما .

أمين تقي الدين .. صوت اغتراب

موقف على الراديو مثلت به لاول مرة في حياتي دوراً مزدوجاً : فانا المؤبن ، وانا ربيب المتوفي . اقيمت الحفلة بمناسبة تعليق صورة امين تقي الدين في دار الكتب .

المرة الاولى في حياتي اود ان اعتذر عما سأقول .

كنت احسب انني افهم الذي اكتب عنه الآن . وكنت ، وهذا سر اذيعه للمرة الاولى ، ألومه على الكثير الذي لم يفعله . غير اني حين جلست لادوّن كلماتي فيه ، بان لي سر وانقشعت حكمة . فامين تقي الذي ادبني ، وعلمني الكثير في حياته ، القى علي درساً بعد مماته ، حين حاولت ان ارثيه . وامين تقي الدين المحامي ، القوي الحجة ، اللبق ، الفصيح ، افحمني بالامس ، ورد عن نفسه من القبر تهمة كانت تختلج في خاطري لأني احبه ،وبقيت سراً في خاطري لأني احبه . اما الآن وقد وضحت براءته،فليس من العقوق ان نتحدث عنها . كنت ألومه ، بعد ان شببت ،على الشعر الذي ما نظمه والنثر الذي ما صاغه . ذلك النهر المتدفق لمَ لم يشدّ اندفاعه الى الالآت تولد الكهرباء طاقة قوة ومصابيح اضواء .

وحين جلست لاحدثكم عنه اكتشفت السبب .قعدت وغصة الحزن عليه ما زالت آهة في صدري ، وذكرى طفولة اشرف

عليها ، وفتوة هذبها وغذاها . جلست على قمة هزة عاطفية ترهف احساسي ، واهماً اني سادوّن اجمل ما كتبت في حياتي فما ان بدأت حتى تحققت ان من الجريمة صوغ الكلمات ، وان الالفاظ لم تكن ولن تكون اداة الافصاح . حين يرتفع الاحساس الى صعيد يطل منه على الله ، يتأله الاحساس ، ويخلع الشعور عن نفسه اردية الكلمات .

يقولون عن الذي يموت انه انتقل الى جوار ربه . اكبر ظني ان امين تقي الدين عاش في جوار ربه طيلة حياته ، وهذا الصعيد العالي الذي سكنته نفسه طيلة عمره ، ملأ نفسه بانسانية الهية حتى لا تطيق الكلام لها رسولاً . لذلك صمت حيث كان ينتظر اصدقاؤه منه الكلام ، ونظم البيت الواحد حين توقعنا منه القصيدة ، والقصيدة حيث تساءلنا اين هو الديوان؟ ولكم من مرة رأيته منفعلاً يخلو الى غرفته ، وبين يديه قلم ، وامامه اوراقه ، ثم يخرج من الغرفة حزيناً باكياً او مقهقهاً طروباً واوراقه ما زالت بيضاء .

الرجل الذي اتحدث عنه الآن كان اخاً لأبي . هذه هي حادثة الولادة . ما هذه بالامر المهم ، هذه الصدفة . غير انه لو لم يكن لي عماً لشاقني ان يكون من ذوي قرباي . واني لاعلم ان بين المواطنين من هم ليسوا باقل مني شغفاً بهذا الرجل الذي ليس هو من ذوي قرباهم . واني كذلك لاعلم ان بين المستمعين من هم مثلي يودون ان يكون كل ما بينهم وبين بعض ذوي قرباهم امر واحد - بيد دونها بيد .

لعل شغفي به كان من بعض اسبابه انه شرد عن العادة الشرقية

التي تعنكب من الوقار حجاباً بين الابن والاب او العم وابن اخيه . لقد كان عمي عشيري بعد ان شببت . اذكر يوم مررنا بعين زحلتنا وجلسنا عند نبع الصفا فعرفني الى فتاة في مثل عمري، الثامنة عشره . وبعد ان أحكمت طربوشي ولمست شاربي، رحت اتحدث الى الفتاة منفردين عن سائر الجمع . ونهض عمي امين ونهضت بعد ساعتين ، فلما ركبنا السيارة سألني : بماذا تحدثتما ؟ اجبت بسذاجتي القروية : تحدثنا عن الصحافة . فضحك مؤنباً : « فتاة في الثامنة عشرة ، والدنيا صيف ، ونبع الصفا وتحدثها عن الصحافة ؟ اخس اخس » .

وعلى ذكر هاتين اللفظتين ، فقد كان يبوح عن رأيه في الادب بالفاظ ثلاثة يكررها. فهو ان قرأ مقالاً او قصيدة صاح : اخس. اخس . او كلام فارغ . او الله ! الله ! وكان اكثر ما يصيح « الله الله » لكتابي كليلة ودمنة ومقدمة ابن خلدون في الادب القديم ولشعر صديقيه شوقي وخليل مطران ونثر صديقه الآخر ولي الدين يكن في الادب المعاصر .

وكان يحب اللغة العربية صافية لا توحل ، عفوية لا تتصنع . ولا يطيق ان تتسرب اليها ركاكة . وفي ذات يوم فيما كنت اسطر رسالة الى صديق قال لي : « اقرأ علي ما انت تكتب » فبدأت : عزيزي فلان ، بعد السلام اطمنك عني » فقاطعتني صفعة من يد عمي وصرخة « كم مره قلت لك اطمنك عني غلط ، قل اطمنك الي . اكتب بالعربي او فاكتب بالفرنجي . ولكن لا تكتب بالعربي الفرنجي » .

لم اعرف رجلاً عشق وطناً مثلما احب امين تقي الدين لبنان، ما غالى ولا بالغ حين نظم الشعر فيه ومن شعره قوله :

اذا قيل لبنان قل موطني الهي وصل له واسجد

لقد صلى للبنان وسجد وتغنى به ، ولكن صلواته لم يتخللها شتائم تصوب لغير لبنان ولا دعاية لبغضاء ولا تجارة بالاحقاد .

لقد احب الناس جميعهم ، وضيعهم وسريهم ، فتاهم وشيخهم . كان يحس بعاطفة البنوة نحو من تقدمه في العمر مثل اسكندر عمون ومحمد الجسر ، وبعاطفة الابوة نحو من يصغره مثل ابراهيم طوقان والياس ابي شبكه وتوفيق وهبه والدكتور جورج حداد . لا اعرف احداً من الناس ظفر باخوة الناس مثل امين تقي الدين . لا اعرف شارعاً في بيروت ولا حياً ليس له فيه صديق حميم . من بيت عمر بيهم في حرج بيروت الى مكتب اولاد خليل عبدالعال على المرفأ ، ومن بيت حبيب ربيز في رأس بيروت الى بيت فيليب الزهار على الجميزة . في كل حي ، في كل شارع ، صادق واحب وآخى لغير سبب ذاتي او منفعة ، بل لانه فطر على الصداقة والحب والاخاء .

غير انه لم يكن من طبعه ان يقصر علاقاته وصداقاته على اصحاب الاسماء اللامعة مثل ميشال زكور واسعد عقل وانطون الجميل وموسى نمور وفؤاد ارسلان وخليل مطران وجبرائيل نصار بل كان من اقرب الناس الى قلبه بعض البقالين والحوذيين والا كارين وباعة الجرائد .

في سنة ١٩٢٢ او سنة ٩٢٣ رشح نفسه للنيابة وكان الانتخاب

على درجتين اذ يقترع المندوبون الثانويون للنائب . واقترب يوم الانتخاب وعمنا لم يتحرك من مكانه . واخيراً اقتنع بانـــه من الضروري ان يطوف في الشوف داعياً لنفسه ، فركبنا السيارة ولما بلغنا صحراء الشويفات وقفنـا هنيهة نتطاع الى الزيتون تتطاير منه السمن ، فنزلنـا وقضينا النهار في الصيد . كل حملته الانتخابية كانت يوم صيـــد في الشويفات في حين انفق خصمه الاقطاعي ٨٠٠ ليرة ذهبية .

وجاء يوم الانتخاب وكان على الظافر ان ينـال اكثرية ٦٥ صوتاً نال منهـا امين تقي الدين ٥٤ . وغادرنا بعبدا وهو منفعل يبكي . فاستغربت هذا منه يقيناً مني انه كان لا ينتظر اكثر من عشرة اصوات ، فلماذا الانفعال ؟ سألته فراح يردد : مسكين بشاره ، مسكين بشاره . ذلك ان صديقه الشاعر بشاره الخوري كان مرشحاً للنيابة وفشل .

اما مجالسه فليس من الحق ان نختصه بالذكر منها — كانت مجالس الادباء في « سبلنددبار » في القـــاهرة « وتباريس » في بيروت مجالس طرافـــة وفكاهة وفكر ورواية . كان ذلك في الماضي البعيد يوم كان الحديث فناً ادبياً ويوم لم يتبرم النـــاس بعضهم ببعض فيستعينون على طرد سأمهم وضجرهم الواحد من الآخر بلعبة « رولنس » .

ما الذي تركه هذا الشاعر الاديب ؟ اريد ان استعمل ادق الموازين واقسى قواعد النقد ، فاجيب ان انتاجـه الجيد يقتصر على بضع مئات من ابيات الشعر بعضها خالد ، وحفنة من المقالات

قليل منها سيثبت على الدهر . وترك ذكرى حياة عبلة مفعمة بالمروءات والأنس والحب والاخاء .

كنت في دار الكتب استمع الى محاضرة تلميذه الآخر – اخي خليل – وحانت مني نظرة الى حيث ثبتت صور البارزين من اللبنانيين ، فلمحت صورة وديع عقل . واحلف اني سمعت وديعاً يسألني ، كما كان يسألني عشرات المرات في سنوات العشرين كلما سبقت عمي امين الى مجالسه ، سمعت وديع عقل يسألني ، « اين امين ؟ متأخر كالعادة ! » . فالى وديع عقل وغيره من اصدقائه الجالسين خالدين على حيطان دار الكتب اقول : ان رفيقكم امين آت اليكم بعد ايام ، فقد تفضلت الحكومة اللبنانية فاصدر معالي وزير التربية مرسوماً بتعليق صورة امين تقي الدين في دار الكتب . فللحكومة اللبنانية بشخص معالي وزير التربية الشكر .

هنا اود ان اثب من ميدان العاطفة ، لاذكر لكم امثولة اخيرة تلقنتها من الفاجعة العاطفية :

لقد احببت هذا الرجل لأقصى ما في مقدرة رجل ان يحب رجلاً . وفي سنة ١٩٣٧ كنت في مغترب بعيد ، مانيلا ، الفلبين ، وكان من عادتي اذ انصرف من مكتبي ان امر ببناية البوسطة . وقفت امام صندوق البريد ارى من خلال زجاجه رسالة عليها طابع لبنان واسمي باللغة العربية . وقفت مشدوهاً خائفاً دقائق طويلة ومفتاح الصندوق بيدي اتطلع الى الغلاف ولا افتح الصندوق . ومر بي صديق اميركي فسألني مالي واقفاً كالصنم ،

اجبت اني اخاف منظر هذا الغلاف . فضحك هازئاً قائلاً : يالك من شرقي معتوه عاطفة. وتناول المفتاح من يدي وسلمني الغلاف. كانت تلك الرسالة نعي عمي امين .

لم ابك ولم اتفجع ، بل ألهمتني الغريزة ان ادفع عني هـذه النكبة، فحدثت نفسي: انني بعيد عن اهلي واصدقائي . كثيرون منهم لا يراسلونني، ولكني اعلم انهم احياء احباء الي. اذاً فلأحسب ان هذا الذي جاءني نعيه لا يزال حياً بعيداً عني ، ولكنه لا يراسلني .

الى الذين يفجعون بحبيب انصح ان يحاربوا الحزن بهذا الخداع العقلي . ترى اهو حقاً خداع ام حقيقة ؟ كثيرون من الرفاق يغتربون الى كندا و كولومبيا والارجنتين . بعضهم يرجع الينا وبعضنا يغترب اليهم ، وآخرون يبقون هناك ونبقى هنا من غير ان نتراسل .

الموت هو اغتراب . في هـذا الحديث لم اقل « المرحوم » . ذلك لانني اقنعت نفسي ان عمي امين اغترب عني او انني لا ازال مغترباً عنه . حيلة الضعيف و لكنها ناجحة .

علمتني الحياة

خطاب اذيع على الراديو

أي شيء علمتني الحياة ؟

هي علمتني الكثير ، وهي لم تعلمني شيئاً .

ذلك لان الدروس التي القتها يطغى عليها اختبار شامل واحد ، وهي ان على الانسان ان لا يقف من الحياة ، اشخاصها ومعضلاتها وقفة حاسمة جازمة نهائية . فمواقف الحياة تتشابه في سطحياتها والويل لمن يريد ان يعالج مشكلاً على ضوء خبرته في مشكلة سابقة ، من غير ان يحسب حساباً للعنصر البشري الذي يستحيل ان يكون واحداً في موقفين ، ومن غير ان يعتبر ان المعضلات تبدو متشابهة فهي اذاً تحمل في طيها اسباب التضليل عن حقائقها ، اذ تزين لصاحب العقل الكسول ـ والعقل بطبيعته كسول ـ ان يقول « هذا مثل هذا وانتهى الامر » . لذلك ترى المدجلين من مزيفي قادة الفكر يتوجهون الى الجمهور الغبي بوصفة ـ روشته ـ واحدة ، او وصفات قليلة يبشرون بها انها تشفي كل الامراض ، وتوصل الى كل الاغراض ، ولذلك ترى ان خصيان القول ، وصرعى الدجل ، لا يقبلون مساومة فيما يسمونه ثقافة ، ثم كذلك

تسمع هـذه الامثال ، والحكم ، والطرائف المحفوظة ، تغمر احاديث السخفاء ، وكتـاباتهم ، وخطبهم ولست أعرف من ظاهرة أدل على جمود التفكير بين الناطقين بالعربية وبانعـدام حيوية الانتاج مثل هذا التقديس والاسراف بالاستشهاد بابيات من الشعر والامثال التي طغت على الادب العربي والطرائف التي نرددها في كل يوم ، سنة بعد سنة ، بل جيلاً بعد جيل .

اذاً فالحياة إذ تسخو بتثقيفنا ، هي كذلك تنذرنا ان كل ما نحسبه خبرة يجب ان يبقى دائمـاً رهن اعادة النظر او الفحص من جديد . يجب ان يبقى ابداً موضوعـاً للتحوير ، والتبديل والتكييف والتقميص . ذلك الافق الذي لاح فيه دخان الف باخرة ، وسطعت منه الف شمس ، يجب ان يبقى دائمـاً تحت منظارك فبعض ما ترى ، ليس له من وجود لانه خداع بصري ، واشياء تبدو كبيرة هي في حقيقتها صغيرة او تقترب منهـا . وخلف اشرعة الزوارق التي زحمت انفك أساطير جبارة انت تراها لو انك اعتضت عن منظارك الضعيف بمنظار جبار .

كذلك يجب ان تحسب حساباً لما لا يرى من تيارات ، وان تحسب حساباً للمفاجآت ، وان تقف على اخمص قدميك كالملاكم مشدود العضلات ، مجموع القبضتين ، مستعداً للكر والفر .

اذاً والحياة لا تعلم شيئاً بشكل جازم نهائي ، فما الذي علمتني اياه الحياة ؟

امامنا دقائق فلنقتصر على غير المعروف وغير المألوف .

علمتني الحياة ان احتمل زوادة من ذكريات جميلة لانتصارات اغذي بها نفسي بنفسي كلما اصبت بهزيمة .

في زمن الدراسة عام ١٩١٩ ظفرت بجائزة ثلاث جنيهات في مباراة كتابية عنوانها « مضار المسكرات » . وبعد سنتين كنا في مباراة البسكتبول السنوية وقد سجلت فرقتنا - وكنت من لاعبيها - ٣٠ نقطة ضد ٣١ لاخصامنا وقبل انتهاء اللعب بثوان سجلت انا اصابة فربحنا المباراة السنوية ٣٢ - ٣١. بعدذلك بثمان سنوات اي سنة ١٩٢٨ كنت تاجراً واستوردت في المهجر اول شحنة من الحقائب (شنتات) الكرتون صنع المانيا وربحت الشحنة الاولى ثلاثة آلاف دولار .

وكر الزمن وانقطعت عن الكتابة نحواً من اثنى عشر سنة وضعف ايماني بنفسي ككاتب ونزلت بي نكبة مالية فافلست واصابني من ازدراء الناس ما هم ان يقنعني باني في الحياة شيء لا قيمة له ومفروغ منه . غير اني لما يئست استعدت ذكرى الجائزة والمقالة الرابحة فقلت لنفسي اني كاتب ورسمت امام عيني صورة الطابة تسجل الاصابة الاخيرة الفائزة وانا ورفاقي اللاعبون على اكتاف التلامذة . وكيف لن افوز بالاتجار ، شحنة حقائب الكرتون من همبورج الم تربح ٣٠٠٠ دولار؟ ساكتب ، انا كاتب . سأتجر ، أنا تاجر قدير لا يهمني ما يقول الناس .

زوادة النجاح احتملها دائماً . لا بأس ان تكون ذكرى تافهة كربحك سبع كال ، او كأن تكون قد ضربت ابن الجيران

فهرب منك، او كأن تعجب بك بنت الباشكاتب. تزود ذكريات الظفر لتقوي معنوياتك اذ تنهدم. ولا ريب انه يمر بك فترة في الحياة وقواك المعنوية في شلل، غيرانه من الضروري ان تقنن هذا الافيون جرعات صغيرة فتكون لك حافزاً لا مخدراً.

ثم علمتني الحياة ان اعيش حياة ثانية صالحة لا واعية. زوادة الاوهام ضرورية للعيش. كل منا يحلم في يقظته انه ديكتاتور او غني كبير او مخترع او اديب عالمي. هذا ضرب من الجنون النافع. شرط ان لا يجمح فانه من هذه الاوهام المضطربة تتبلور فكرة واقعية او حوار قد تستعمله في المستقبل او مشروع تجاري او وحي واقعي غير عادي. ولهذه الاوهام فائدة ثانية: ماذا اصابك البارحة من فشل؟. هل ارسلت مقالة الى جريدة «مضرب الفجر» فلم ينشرها رئيس التحرير شمدص جهجاه؟ هل اقامت المفوضية «البلوكوفنشية» حفلة كوكتيل فدعت اليها جارك بندريك علوش ولم تصلك ورقة دعوة؟ هل رأيت الاستاذ عوسج شنديب راكباً سيارة فخمة وهو صعلوك وانت منتظر الترامواي تحت الامطار؟ كل هذه امور بسيطة يجب ان لا تزعجك. افتح زوادة الاوهام حالاً تصبح اكبر كاتب في الدنيا ورئيس تحرير الجريدة شمدص جهجاه مسكين شمدص جهجاه – هاهو يحاول ان يدخل الى منزلك يرجوك راكعاً على ركبتيه ان تجود عليه بمقال. اطل من النافذة وانظر الى خادمتك «ابركسيا» والمكنسة في يدها تضرب بها شمدص جهجاه وهذا يصيح آخ ... آخ ...

دخيلك اضربيني انما اريد مقالاً . مقالاً قصيراً فقط لا غير .

أما سفير دولة «بلوكوفتشيا» فمن اسهل الامور ان تثأر منه. زوادة الأوهام . هذا انت قد منحوك بالاجماع « جائزة نوبل » العالمية . اعلنوا اليوم في البلاد عيداً قومياً ، وها هي الشوارع مزدانة ورئيس الوزارة بالثوب الرسمي يرأس الحفلة لتقليدالوسام وتسليمك الجائزة فهل تحضر الحفلة ؟ بالطبع تحضر الحفلة بشرط واحد وهو ان لا يدعى اليها سفير دولة« بلوكوفتشيا » . ياسيدي يوجد بروتوكول . علاقات دولية . ابداً . انت لا يهمك البروتوكول ولا العلاقات الدولية . سفير « بلوكوفتشيا». بدلاً من مجيئه الى الحفلة ليذهب فيزور بندر « بك » علوش الذي كان يدعى الى حفلات الكوكتيل ولا تدعى انت . أما الاوتومبيل الفخم وعوسج شنديب وانت منتظر الترامواي فهذا امر تافه . زوادة الأوهام : هوذا سيارة - اول سيارة تسري بقوة الاندفاع الذاتي وعزم الذرة يقودها شوفران اثنان بوقت واحد . وفيها راديو وتلفون . . . و . . و . . من يقدر ان يصف ما فيهاوهي تجري بك في الشارع والثلوج تتساقط والارياح تثور - من ترى في الشارع ؟ بالطبع بندو علوش . ماذا يعمل . مسكين منتظر الترامواي . ها هو يناديك ان تقف له . فهل تقف وهل تفتح له الباب وتجلسه الى جانب احد السائقين وهل تجود بالمقـــال على شمدص جهجاه ؟ هل تأذن لرئيس الوزارة بدعوة سفير «بلوكوفتشيا» ؟

كل هذا غير مهم . المهم انك بنيت من الأوهام ملجأ تحلم فيه انك قد قتلت في نفسك النقمة التي تتأكل قلبك . زوادة الاوهام ضرورية في الحياة وهي مفيدة شرط ألا تأكل منها بنهم.

علمتني الحيـــاة ان الحسد غريزة بهيمية نهاشة هدامة ، وانك لا تستطيع ان تقهرها بغير ان تقاتلها بكل ما تملكه من اسلحة، من تقوى وواقعية وكبر نفس . كنت حسوداً الى درجة قصوى، وكدت اختص بالحسد اصدقائي ورفاقي في المدرسة . من قوانين هذه المحطة ان لا نذكر اسماء اذاً فاكتفي ان اقول ان بين بعض اصحابي الجامعيين اشخاصاً لهم شهرة عالمية . وكنت كلما وقعت على اخبارهم اتحسر واحسد وانقم ان يكونوا هم في رفيع المقامات وانا اذ ذاك خامل الذكر . لقد تغلبت على هذه الرذيلة بتطور بطيء وبقفزات طفرة . يصعب تحديد الساعة التي اعلنت فيها الانتصار . غير انه من الممكن الاشارة الى حدوثها بوجه عام اثر سماعي عبارة من محامي فقد كان لي في « الفيلبين » محام صديق يتولى شؤوني القضائية والحكومية العارضة ، وكانت شيئاً تافهـــاً . وفي ذات يوم اتفق له ان يعالج من اجلي امراً هاماً فرحنا نطوف في الدواوين من مدير الى وزير الى نائب رئيس الجمهورية وكان صديقي المحامي حيث دخلنا يجـــد الاصدقاء ويعرفني « هذا ابن صفي، هذا يسبقني بسنة في الدراسة، هذا كان منافسي في الركض، هذا غلبته في السباحة» وكان صديقي المحامي رجلا غير شهير ولا عظيم . ولمـــا انتهى بنا الطواف في

السراي وركبنا التاكسي نحو المكتب التفت الي صديقي المحامي وقال «اتعلم يا سعيد؟ كلما رأيت اصدقائي يحتلون المراكز العالية» قلت مقاطعاً وكنت اكشف عن شعوري «طبعاً حدثت نفسك الله يلعن الحظ» فضحك وقال «لا، كلما قوي اصدقائي شعرت بالقوة في نفسي».

منذ تلك الساعة عكست موقفي العاطفي نحو اصدقائي الناجحين وهم اليوم يلمسونه. ووجدت في نفسي القوة بدلاً من الحسرة وجمال الحب بدلا من بشاعة البغض وواقعية الربح بدلا من الخسارة. قلت ان اصدقائي الناجحين في الحياة يلمسون اليوم شعوري. كيف يلمسونه؟ الاحساس يجد طريقه الى الآخرين. الحسد غريزة بهيمية نهاشة هدامة. علمتني الحياة انه من الجميل والنافع والممكن ان اقهرها. علمتني الحياة - آخ - ضاع الوقت، وعلى ذكر الوقت علمتني الحياة ان افهم الوقت فانا اليوم اعلم ان حياة الانسان طويلة. اربعون خمسون ستون سنة هي ساعات كثيرة في وسع اي واحد منا ان يحقق فيها اموراً مهمة. شرط ان لا نهدم الوقت. هذه السهرات ساعات، ساعات لماذا؟

قدم لضيوفك القهوة والشراب ولكن لا تقدم الوقت هو، اثمن من أن يهدر. والوقت ليس له من بديل. بعض الامور كالخمرة يلزمها التحقيق. وقبل ان يدهمنا الوقت - وقت المحطة - فاليكم الامثولة الاخيرة التي القتها علي الحياة. عامل الناس كأنك مرشح للانتخابات وكأنهم كلهم ناخبون وكأن يوم الاقتراع غداً.

على أعتاب هيكل

جلسنا على منصة الخطابة وخلفنا مكتبة الجامعة الاميركية ، تلك البناية التي اهداها آل يافث الى الجامعة ، وقد كلفت ما يزيد عن مليوني ليرا . وحقاً ان المنصة التي جلس عليها نحو من عشرين ، بأثوابهم العلمية ، ونياشينهم يواجهها الحشد يترأسه فخامة رئيس الجمهورية ولفيف من الدبلوماسيين ، والدرج الذي استدار بالمنصة ، كل هذا أوهم الناظر ان هنالك جمعاً من المتعبدين.

بدأت الخطاب بـ « فخامة الرئيس » ثم خاطبت وزير البرازيل بكلمات بورتغالية سرغس لها الجمهور ثم « سيداتي وسادتي »

صاحب الفخامة

سيداتي وسادتي

أمام بطولة الاعمال ، باطلة هي الأقوال .

ليس للكلام قيمة في هذا الاحتفال إلا انه تجسيد لعاطفة تنحني بتقدير وخشوع امام انتاج الكبير .

اذاً فلتكن الالفاظ قليلة رصينة متواضعة هادئة .

فانا نحن جالسون على اعتاب هيكل .

ان اول ما يمثله هذا التمثال هو التمرد - فلقد ولد نعمه يافث في مجتمع لم يسهل لأفراده الثقافة ، فطلب الثقافة ثائراً على اوضاع ارادت ان تحرمه نعمة العلم والدرس والتهذيب ، فاقتنصها جهاداً متغلباً على الحرمان .

وجاء المجتمع يفرض الحدود على نعمه يافث محاولاً ان يسمره الى مكانه لا يحقق فيه امكانيات سخت عليه بها الأجيال من قوة جسدية واخلاقية وعقلية ، فتمرد ثانية وهبت به روح الصراع فاغترب .

اقول اغترب ولا اقول انهزم - ان اكثر المنهزمين يهربون
وهم قاعدون .

وفي البرازيل وجد تربة لا صحاري - تربة تسخو على الحبوب
الجيدة ، فنبت ونما وازدهر دوحة هي اسرة اليافث .

وجاء دور الانتقام فنفذ انتقامه على ذروة من السمو الاجتماعي
اذ جاد على الحياة التي اضطهدته وحرمته وشردته بان اعطاها
ما يخفف الاضطهاد والحرمان والتشريد .

وها هو الانتقام يطل باسماً من مكتبة على شرفة بيروت
ويشرئب في دار بلدية تنهض في ضهور الشوير ، وينهمر احساناً
جواداً ، ويشع في الف سراج وضاء هنا وعبر البحار .

ونفذ نعمه يافث في المجتمع خلال حياته وبعد مماته حقيقة
اجتماعية وضرورة هي الاستمرار والرقي والنمو والتوسع والقوة
التصاعدية - فجاء ابناؤه وبناته حاملين رسالة المعلم ابيهم .

كان أيسر على هؤلاء الافراد ان يسبحوا في بحر من السعة
والترف ثم فيه يغرقون .

كان أهون عليهم ان يشيدوا من اتعاب سواهم اهراماً من
الجاه يشمخ على الناس وفيه اجسادهم المحنطة يدفنون . كان من
المغري ان تتحجر قلوبهم بنايات ، طوابقها يستغلون . ولكنهم
آثروا ممارسة الخير فانطلقوا شاعرين بالمسؤولية الكبرى ، يفعلون .

ليس في مقدور هذه الأمة ، افرادها وحكوماتها ، ان تهب
شيئاً لآل يافث يزيد في مكانتهم السياسية او المالية او الاجتماعية .
ليس في وسعنا ان نسخو على هؤلاء الأسخياء .

غير ان جمعية متخرجي الجامعة ، وقد كان نعمه يافث احد افرادها ، وبعض اعضائنا العاملين هم من اسرة يافث ، تود الجمعية ان ترمز الى فخرها به وبهم ، فهي تمنح لأول مرة في تاريخها الآن وهنا ، الوسام الوحيد ، وسام دانيال بلس بحمله الى السيد كارلوس يافث ؛ حفيد دانيال بلس الكبير وحامل اسمه الدكتور دانيال بلس .

ان القوة تجوهر نفسها حين تصبح قدوة . ولقد اعطى بنو يافث من قوتهم قدوة . علينا ان ننفذ الشطر الثاني والأهم والأصعب وهو ان نقتدي .

قافلة جمال

كانوا على همة ان يمثلوا رواية في حفلة « عيبه » المدرسية . وراح الخطباء يقفون امام الستار الذي يحجب المسرح . وقفت وقلت : « الحمد لله فهذا مكان لا يخاف الانسان فيه ان يدير ظهره الى ستار لا يدري ما وراءه » ولسبب ما شد أحد التلامذة الممثلين بالستار فتمزق ، وانكشف المسرح ، فأضفت : « والحمد لله فنحن في مكان لا نهرب منه ان بان ما اختفى خلف الستار » والقيت خطابي . يسرني ، وقد أتاح لي طبع هذا الكتاب ان اسجل على نفسي شيئاً من نقيصة التملق الذي تغلغل في كلامي .

للرجل في حياته حادثتان : الولادة والموت .

نقيم الافراح للاولى ، وللثانية المناحات والمآتم .

اما انا ففي هذا المعبد ، هنا في عبيّه ، وفي هذه الساعة اجد اني اهمّ ان تصيبني في حياتي حادثة ثالثة . هي حادثة الكهولة.

فحين أمدّ يدي الى جيبي وانتزع منها هذه النظارات لاضعها على عيني ، اكون قد فعلت هذا لاول مرة في حياتي . هكذا اعترف انني اصبحت كهلا .

حين يولد الطفل يأتي المهنئون ، فنطعمهم «المغلي». ولو اني اقمت حفلة لكهولتي وجاءني النـــاس ، لطفت عليهم بكؤوس ملأت انصافها بالمغلي والانصاف الثانية بزوم الزيتون ، ووضعت في كل كأس شيئاً من حب الصنوبر لاذكرهم بافراح الحياة، وشيئاً من شظايا حجارة الصوان ، لاذكرهم بتلك البلاطة التي ستعلو صدورنا حين نموت . تلك البلاطة التي ستغطي القميص الحريرية،اوالقميص القطنية ، او الجسد الذي لا يرتدي قميصاً .

وبعد فقد لا يكون من مغزى لكأس ملئت بالمغلي ،وبزوم

الزيتون ومزجت بحبوب الصنوبر ، وحصى الصوان ، فنحن في كل يوم نحيا قليلاً ، ونموت قليلاً .

يسمون هذا الشهر ، شهر توزيع الشهادات المدرسية ، موسم الخطابة . غير انه وقد كثرت وقفاتي في هذا الموسم ، لا ادري ان كنت زارعاً او حاصداً . ولا اعرف ان كنت جئت لابيع او لأشتري . في الاحد الماضي كنا في حفلة مدرسة الشوير حيث القيت خطاباً ، وفي الساعة نفسها كانت مدرسة كفرشيما تقيم حفلتها وكان يلقي فيها خطاباً اخي بهيج .

وتقدمت سيدة من بهيج تقول : انت هنا وسعيد في الشوير وفي الاسبوع القادم خطاب في عبيه ؟!

اجاب بهيج : ما العمل هذه بضاعتنا .

سؤال عادي ، وجواب قد يكون عادياً . ولكن الحكيم يجد المغازي في الاقوال العادية . كلنا صاحب بضاعة . كلنا بائع وشار . مصدّر ومستورد . منتج ومستهلك . هـــذا المعهد تشترون فيه الثقافة بمال جناه آباؤكم من بضاعة باعوها ، وباموال اخرى قدمها رجال جنوها من بضاعة باعوها . ليس الاتجار بعار . العار ان ساءت البضاعة ، او فسدت السوق . كلنا يذكر الحداء « نحن نبيع الروح للي يشتري » . لقد باعها — وهي كل ما يملك من بضاعة ، في السوق التي تعرفونها — فتى الجبـــل فتاكم : عادل النكدي .

في مثل هذا المعهد تدرسون ، وتجهدون لا مرين ، الاول لتعدوا نفوسكم لبيع البضاعة غير المغشوشة ، والثاني لتتدربوا على

شراء البضاعة غير المغشوشة . بين الاثنين علاقة وثيقة ، لان الحياة مثل التجارة - عرض وطلب . وصحيح القول انـه من الصعب ان يجزم المفكر في ايها اكبر اهمية ، معرفة ما يبيعه الانسان او معرفة ما يشتريه . لان الطلب يخلق العرض . لقـد راجت في لبنان بضائع لم يعرف مثلها الالمان ولا الاميركان ولا الانكليز ولا الطليان ، ولا شهدوا لها شبيها لا في الصين ولا في الارجنتين ولا في اليابان ولا في بلوخستان، وربح بها تجارها وأثروا واعتزوا. ذلك لان تلك البضاعة نحن نشتريها .

حول بيتنا في بيروت ، الآن وقد جاء الصيف ، ارى في كل صباح السجاد يتدلى على بلكونات الجيران واسمع اصوات العصي تنهال على السجاد تطرد منه الغبار . اني كلما ارى الخادمة تهوي بالعصا على السجادة ، اشعر كأن تلك العصا نزلت على رأسي ، واذكر ذلك اليهودي في مانيلا « الفلبين » الذي عربت قاعته من السجاد ، وازدانت حيطان صالونه بوصولات التبرع للجمعيات الصهيونية . واليوم ذلـك اليهودي له دولة ، واصحاب السجاد بعضهم على الحصيرة ، وبعضهم على احقر من الحصيرة .

ونحن لو احترمنا الناس ، لا بسبب الاوتوموبيل الذي يركبون ولا المأدبة التي بها يسخون ولا الكرافتات التي بها يزدانون ، ولا السجاد الذي به بيوتهم يفرشون ، بل لاجل المساهمة بمثل هـذه الاعمال النبيلة التي قام بها هذا المعهد ، وهـذا الميتم ، لاغتصبنا النبل والعمل الكريم ولطغت قيم الروح على قيم المادة .

اعود الى نظاراتي فاذكر ان من مظاهر الكهولة ابداء النصح

اود ان استميحكم عذرا فاقدم لهؤلاء الفتيان الاحباء، لا نصيحة واحدة ، لا جملًا واحداً ، بل قافلة جمال .

فاولا - ليتعلم الواحد منكم مهنة او حرفة ، وليتقنها . في نظر الله ، وفي نظر اشراف البشر ، العمل طبقة واحدة . سائق الترامواي ، وطبيب الاسنان ، استاذ المدرسة ومصلح الاحذية ، الممرضة وخادمة البيت - كلهم عند الله وعند الراقين من الناس في صف واحد . اتقنوا عملكم . كثيرون من الاخوان يأتون في طلب عمل . تسأل الواحد ما الذي في وسعك ان تعمل يجيب « اشمكان ». ان الذي يطلب « اشمكان » يحصل على عمل في الحياة اسمه « اشمكان » . الصخر بضاعة غير رائجة . الحجر المنحوت تقدرون ان تبيعوه .

ثانياً - ليس لكم من عدو . ابن العائلة الثانية ما هو بعدوكم . ابن الضيعة المجاورة ما هو بعدوكم . ابن الطائفة الثانية ما هو بعدوكم . ان الذي يبيعكم العداء والخصام والمشاكسة يبيعكم سماً ويتجر بجهلكم . بضاعة العداء تدر الربح على بائعها فقط . وحين ترفضونها لن يجدوا لها مشترياً . لن تجنوا من العداء والبغضاء الا الجريمة والخسارة . حين وصلت « الفلبين » عام ١٩٢٥ ، جاءني نسيب لي رحمه الله فهمس في اذني ان لي هناك عدوين - كامل حماده وزوجته . فصدقت . لانني كنت قد صحبت من هنا « ستوك » من سقط المتاع ، ما يسميه التجار « جوب » من البغضاء . وصرنا الى يوم اصبح فيه كامل حماده وزوجته احب الي من اهلي ، وصرت احب اليهم من اهلهم . وجنينا كلنا من هذه

الالفة ربحاً مادياً، وما هو أثمن من الربـــح المادي ، هو الشركة الروحية ، اذ يشاطر الانسان اخاه الانسان ضحكاته ودموعه .

إمشِ نحو هذا الذي تتوهمه عدوك خطوة وابتسم، ترَ انه هو الآخر كذلك مشتاق الى اخوتك والتعاون معكْ .

ثالثاً – اي الجمل الثالث – اشتروا البضاعـــة الجيدة حيث وجدتموها . بعض البضائع الجيدة لا تباع في « الاوكازيون » ولا يعلن عنها . من أقبح التعابير التي اخترعتها الصحف هو اصطلاح « الطبقة المثقفة » . وبشاعة هذا التعبير هو انـه يخلق من المثقفين « طبقة » . هذه الطبقة قد لا تطلب البضاعة الا في الاسواق الشهيرة حيث عمرت الثقافة . قصب السكر دسم وشهي في « الدامور » وهو كذلك دسم وشهي في « انطلياس » . اقرأوا كتب الفلسفة وطالعوا سِير العظام ، وقولوا لي هل تجدون الايمان والتقوى والقناعة والنزاهة أحمر وأصلب في اي مـــكان من الدنيا ، منها ههنا في قلوب اجاويد الدروز ؟

النصيحة الرابعة ، الجمل الرابع : هي نصيحة سلبية . لقد وهبنا الله فصاحة في النطق وبلاغة في التعبير ، وكياسة في السلوك . كل هذا نفخر به ولكننا فيه مسرفون . ليس من الضروري إنْ تزوج واحد منا ، او مات منا رجل ان يحضر العرس او المأتم كل اهل الارض .

ورد سلام تهاني . وتعـــاز . تلغرافات شكر . وتغرافات معايدة . بطاقات . باقات زهور . سهرات . مجاملات . لقـــد كركبنا الحياة كثيراً .

من اشهر رجال هذه البلدة حكيم اسمه الدكتور جميل كنعان لقد عرفته منذ ربع قرن وعالجني موفقاً . وحين رجعت من غربة هذه السنوات الكثيرة كنت اشتهي ان اراه لنتبادل كلمة « مرحبا » . على انه وقد « قصّر في السلام علي » احب ان اؤكد لكم انه لم يصبح من اعدائي . حين أجتمع به قد اعاتبه ، وقد لا اعاتبه . على كل حال طمئنوه انني « مش رح قوسه »

ما دامت بضاعته جيدة فلا أبالي اذا هو لم يناد علي : « تفضل يا خواجه » .

هنا تزدوج النصيحة ، فها كم توأم جمال خوفاً من ان تطول القافلة . حذار ان تعجبوا بشخصين : الاديب وموظف الحكومة .

اما الاعجاب بالاديب فيرجع امره الى الماضي القريب يوم كان اكثرنا امين ، فسطع كل من نظم بيتاً او خط سطراً ، او ألقى كلمة . صدقوني ايها الفتيان انه لا يستحق الاعجاب اكثر هذا الذي تقرأون وتسمعون . لقد سمّوا بحق « حملة اقلام » . اكثر ما ينشر ، الفرق بينه وبين العادي والمبتذل ، انه كلمات طبعت . لا تحسبوهم ابطالاً هؤلاء الذين باعوا اقلامهم كما باعت البغي عرضها .

ان اقل ما في مقدوركم فعله هو ان لا تحذوا حذوهم .

اما ان كان بينكم « فلتة » عبقري فلست ارجوه ان يصم اذنيه عن سماعي ، لأنه لاه عن الاستماع اليّ والى سواي بالاصغاء الى خفقات قلبه .

اما موظف الحكومة فيرجع عهد الاعجاب به الى يوم كان

الباشا باشا . صدقوني ان هذه الهالة من العظمة التي تحيق باي كان من موظفي الحكومة ستختفي .

وهذه النصيحة الاخيرة ، ما هي بجمل بل هي ناقة ذلول .

اعطوا شيئاً من جهودكم وتفكيركم واموالكم للخدمة العامة. اقول اموالكم على العلم بان اكثركم ليسوا بموسرين . ليس في الدنيا فقير . كلنا اغنياء . من ليس في قدرته ان يعطي المليون فليعط المئة الف ، او الليرة او القرش الواحد . ففقرنا ليس في الجيوب بل هو في القلوب .

كثيرون منا لا يعرفون السباحة . وما انغمسوا في البحر قط : هؤلاء تفوتهم نشوة الانطلاق في الماء المنعش ، ولا يعرفون لذة الابتراد متحررين من اثوابهم .

تحرروا من اثواب الانانية والتقتير وانغمسوا في بحر العطاء . اعطوا القليل او الكثير . انكم تحسنون الى انفسكم اذ تحسنون الى سواكم . اعطوا من الوقت والجهد والمال لخدمة عامة مجردة . انكم اذ ذاك تقتربون من اخيكم الانسان .

قلت في بدء خطابي اني لا أعرف ان كنت حاصداً ام زارعاً ، شارياً ام بائعاً . اما الآن فقد وضح الأمر . لقد جئت الى هذا المعهد الكريم لأبيع قافلة جمال ولا ادري ما حظي في هذه الصفقة . كل ما أعرف انه في مثل هذا السوق احب ان أتجر .

الأعمدة السوداء

هذه أبهج حفلة حضرتها أو خطبت فيها . لن أنسى كيف مشى ذلك الشيخ المثلج الشعر تسبقه دموعه نحو منبر ليلقي كلمته ويتقبل وسامه . كانت الحفلة في بناية الاونسكو والقاعة شبه ملأى ، ومرح الحضور يعلن اننا في مهرجان . عفو القارىء ان اعترفت انني خلال الحفلة كنت ازغرد في نفسي « اكثر هذا الجمال من صنع يدي » فلقد كانت تكريما للشاعر وديع بستاني الذي ترجم من الهندية الى العربية ملحمة « مهبراتا » وطبعتها جمعية متخرجي الجامعة الاميركية يوم كنت رئيسها . من خطباء الحفلة تلك سعيد عقل وعبد الله العلايلي وكمال جنبلاط ، وفؤاد افرام البستاني .

سألت المحتفى به، حين لقيته لأول مرة: بماذا اناديك؟ . استاذ؟ لفظة لا تتناغم مع الشاعرية. وليس لي ان ادعوه باسمه عارياً.

اجاب أديب الملاحم الذي نحتفل به اليوم: «نادني يا عمي انت لا تدري انني كنت صديقاً حميماً لأبيك».

فيا عمي، بل يا عمنا جميعاً، لا تحضرني عبارة احييك بها اجمل من المثل اللاتيني: «الفضيلة تتوج رأس مَن يعبدها» وانت عبدت الفضيلة من زمن بعيد فزانت رأسك بتاج ليست «المهابهاراتا» الا جوهرة هندية جديدة تترصع فيه.

كثيراً ما واكب الانتاج الادبي جهد عملي فيه غمار. فكم وراء قصة من قصة، وخلف رواية من رواية.

وان لهذه الملحمة ملحمة غير معروفة، كانت آخر صفحة فيها شاشة ظهر عليها مطران ودكتور وجريح ومجنون، وكبير المجانين، وكيلو من «النفتلين» وخمسمائة متر ماء، وضيعة الدبية وعاليه وبتدين، وبالطبع بعقلين، واربعة آلاف من متخرجي الجامعة الاميركية.

كان ذلك منذ سنتين حين شخصت الى كاهن الشوف سيادة المطران بستاني منتدباً لمهمة سياسية ازدوجت بمحاولة الحصول على خمسماية متر ماء تضاف الى الف متر نالتها بلدتي بعقلين من كرمي المطرانية المارونية في بيت الدين .

وجلست الى كاهن الشوف ،فأمر لي بكأس من النبيذ المعتق، نبيذ عتيق يرجع عهده الى زمن ماض سحيق يوم كنا في الشوف دروزاً و كنا نصارى . وبدأنا الحديث عن الملاحم وانهيناه عن الملاحم. هكذا غرقت السياسة بخمسماية متر ماء، وتبخر الماء قبل ان ينهمر ، وخرجت متطوعاً لطبع ملحمة « المهابهاراتا » .

ثم كان اجتماع عاليه ، في بيت الدكتور جورج حنا ، حضره أحد مجانين هذا البلد عزمي البحيري ، صاحب « دار الاحـــد » . أسميه بالمجنون لانه يفهم مهنته فناً ورسالة فقط لا غير .

واقبل فؤاد بستاني – ابن عمي وديع ، ابن عمنا – حاملاً من « الدبية » جراباً يخنقه حبل وخيطان . وفك الجراب وأفرغه في زاوية البيت فتهاوت من الجراب ثلاث عشرة مخطوطة شعرية . ترجمات لكنوز الهند حنطهـــا « النفتلين » وانتشرت من النفتلين في الغرفة غيمة بيضاء احرق فوحها انوفنا ، وتأجج في نفوسنا نقمة وثورة .

من ظلمة الجراب المخنوق تدحرجت مجهودات اربعين سنة . اين سيد هذا المجهود ؟ اسير جريح الروح في « اسرائيل» ما صان حريته الناطقون باللغة التي اغناها ، وما حرر مواطنوه اسر الحروف التي انحبست في مخطوطاته .

وتجسدت النقمة والثورة في ايجابية مشروع « المهابهاراتا » . وجاء ذلك العمل بعض واجبات جمعية متخرجي الجامعة الاميركية التي تزهو بان وديع بستاني احد اعضائها .

جمعية المتخرجين التي نشرت هذا الكتاب يترأسها اليوم اميل بستاني - ابن اخ عمي - وقد ظفر بالرئاسة لأسباب عديدة اهمها انني قاومت انتخابه . بشدة ولكنه اعلن ، فور فوزه ، انه خلف خير سلف . وقلت يومئذ : ومعاذ الله ان اكون « صرحت » - سأحتفظ بالجواب على هذا المديح حتى ارى اعمال الخلف . اما اليوم وقد ظهرت الاعمال ، وانجاز طبع « المهابهاراتا » احدها ، فانني اعلن - لا اصرح - ان رئيس جمعية المتخرجين اليوم هو خير خلف لمن سلف ، وانه قد نال مني ثقتي بالاجماع ومن غير خبط على الطاولات .

ذكرت فضيلة « عمنا » ولم أذكر مواهبه مع ان ترجمته لرباعيات عمر الخيام هي رائعة عالمية ، كما ان ترجمة سامي جريديني لـ « يوليوس قيصر » عن شكسبير هي رائعة عالمية نثرية .

ما تغنيت بالمواهب لأن النبوغ شيء تغرسه الحياة وتتعهده . ولكن الفضيلة تنظمه انتاجاً صادقاً نافعاً .

قال رجل الساعة في الهند البانديت نهرو : « في الهند كل شيء مليح وكل شيء قبيح فاختر لنفسك ما يحلو » في الهند المهاتما غاندي « اراد ان يمسح كل دمعة عن كل عين » وفي الهند اليوم كبير تلامذة غاندي Bavay يبارز نفسه ويخصمها ويلاكمها ، ففيما هو يبشر بعقيدة معلمه غنديجي داعياً الى Ahimsa اي اللاعنف اذا به يقول

« ان ولادة حضارة جديدة يصحبها ابداً اغتسال بدم » . في الهند مئات اللهجات والاديان واللغات والعلوم والخرافات والاوهام والحقائق غير ان وديع بستاني نفذ عن قصد او غير قصد، نظرية هندية أسمها Apurva وهي تختصر ، كما شرحها الفيلسوف راداكريشنان ، « ان الاعمال تسخر من اجل اعطاء ثمار » فقصد الى الهند ليعمل ، واضح الهدف واضح التفكير متسلحاً بماضي انتاج يؤهله الى محاولة انتاج جديد . فبعد ان عمل بهدوء واتزان ومواظبة ودراسة وتفهم وتعمق ، عشراً ، عشرين ، ثلاثين ، اربعين سنة ،ظهر على الناس بالثمار التي جناها ونقدرها ونستطيبها.

هذه اللفتات نحو الهند واميركا واوروبا وسواها ، هي من خلجات عيوننا وفي سياق تقاليدنا . فنحن أمة لا تغلق نوافذ بلادها . ولكننا ما سرحنا الطرف مرة عبر حدودنا الا ارتد ليكشف عن ان كنوزنا ومناهل قوتنا هي فينا ، في نفوسنا لا في سواها .

ففي عالم الملحمة نجد الشائع المعروف ان الملاحم الموجودة هي اغريقية وهندوية والحقيقة ان اقدم الملاحم واعظمها هي ملاحمنا. ملحمة ما بين النهرين « جلقامش » التي تروي ، في شاعرية تتألق ، قصة تحضير الانسان وتناقش في فلسفة مولدة سر الوصول الى الحياة الابدية منتهية باسطورة الطوفان، وقصة «ادابا» انساننا الذي كاد يظفر بالحياة الابدية ،واسطورة التكوين والخليقة« اينوماأليش»، وملاحم رأس شمرا ، وفيها ملحمة الملك « كارت » وملحمة الملك « دانل » وملحمة الصراع بين بعل ويم ، ملحمة الصراع بين بعل

وموط ، واساطير اليسار وعشتار في صور وجبيل . ويحسن بكل منا ان يتمتع بروائع الصور التي ظهرت في عدد ك ٢ عام ١٩٥١ من مجلة الابحاث الجغرافية في مقال عنوانه « نورٌ ما خبا » بقلم العلامة سبيرز ، وليس هذا العلامة بالبحاثة الوحيد الذي يثبت ان ملاحمنا هي اقدم ملاحم الدنيا واعظمها وان ملاحم الاغريق كالالياذة اخذت عنا ، بل هنالك جمع من العلماء يؤيد سبيرز ، اقتصر على ذكر خمسة منهم :

شار ، ادوار ، دورم ، ألن ، كاردنر ، كامبل تامسن ، فون ابنهايم .

واذكر اني استمعت الى العلامة كاودشيفر يلقي محاضرة في الملاحم سنة ١٩٥٠ معلناً كما اتضح من حفريات رأس شمرا وملاحمها ان امتنا كانت اول امة قالت بالتوحيد .

اية فائدة من التفاخر بماضينا ؟ من اساطيرنا ان امرأة تطلعت الى خلفها فاستحالت عموداً اسود . كثيرون منا تجمدوا عواميد محدقين بالماضي فاسفنكسوا . نحن ان تلفتنا الى الماضي فلنتزود للمستقبل . واذا آمنا في غدنا فلاننا نخلق في يومنا . ففي الشهور المقبلة ستطلع على دنيا الادب ملحمة شعت من براعة احد شعراء نهضتنا الفتى «ادونيس» اسمحوا لي ما دمنا في جو هندوي ان اقرأ منها ابياتاً تشير الى الهند :

نحن والهند خافقان .. ففي الشمس دروب مرت عليها خطانا
ضمنا في القديم توق الى السر ... الى ان نرى الاله عيانا
هو فينا حب عميق وفيض وهو اقوى من القديم الآنا

آمن العقل ان لبنان روّى ظمأ الناس فكرة ولسانا
بحرنا البحر .. كل لفتة جيد سرقت عن شطوطه الارجوانا
سائلوه فموسم الفكر في عينيه ما زال حافلاً ريانا
بحرنا البحر .. لمت الارض كفيه ومدت امواجه اجفانا
فر من شطه الصغير فقد صارت حدود الدنيا له شطآنا
حملتنا خضر النجوم وشكتنا على كل مشرق مهرجانا
لم نحدد لبنان فكراً وحباً ان في كل موطن لبنانا

يسألنا اخوان لنا : ماهذه النقمة تغمر نفوسكم ، واللهب يتطاير من عيونكم وكلماتكم ، واعمالكم ؟ على ماذا انتم ناقمون ؟ ماذا تريدون ؟ الجواب نعطيه هنا ونعطيه الآن :

نحن نرى « الدبية » في كل ضيعة وفي كل مواطن نرى وديع بستاني . نحن نرى الحروف الحبيسة . نحن ننشق رائحة « النفتلين » . ان الاعمدة السوداء ماتزال تعترض طريقنا . نحن نرى ونتحسس الحبل والخيطان الظاهرة والخفية الملتفة على اعناق مواطنينا الخانقة كنوز أمتنا . نريد ان نبتك الحبل والخيطان كي تنطلق قوى الخير وقوى الحق والجمال .

هذه مهمتنا في الحياة ، ولا نستطيع تنفيذها الا اذا بقيت نفوسنا حرارة ، بتحرق من يفهم امسه ويخلق في يومه فهو مؤمن بغده .

بعض هذه الحفلة هو غد ليوم بيت الدين ، ولنا في كل يوم حفلة هي غد لوعد قطعناه :

فيا يومنا الى غد « ياغداً يؤثر »

لنصغ الى الهمسة الضياء

كثيراً ما تعكس الحيـــاة ادوار من يظهرون على مسرحها . في فتوتي كان ابراهيم منذر خطيبا نتسابق الى الاستماع اليه . وياطالما جلست بين نظارة محدقة بمنبر يعتليه . مرة واحدة كنت أنا على منبر ، وكان هو بين النظارة . كان ذلك في حفلة تكريمه في « بكفيا » والشيخ ابراهيم هرمٌ عــلى ثلاثٍ احداهن عصاه .

في المهرجان يغلب المرح على النفوس . اما انا فنفسي في هذا المهرجان يستبد بها الخوف .

الخوف من ان ألحن في اللغة امام شيخ الطهارة اللغوية ، فان بيني وبين قواعد اللغة مثل ما بين الحكومة والمعارضة .

لقد زينت هذا الخطاب وشكلته بالضمة والفتحة والكسرة ، خوفاً من غلطة نحوية او صرفية تستفز الشيخ ابراهيم ، فيثب الي بعصاه ! واني اطمئن جمهور اصدقائه أن لايقلقوا على صحة المحتفى به ، فان رجلاً لاتزال عصاه تخيف الناس لهو رجل لم يـــبرح في شرخ شبابه !

غير ان عصا الشيخ ليست وحدها التي تخيفني . صرت اخاف ان امدح الناس . في هذا الزمن الذي طغى فيه الفساد ، صار اسلم للذي يعبد ضميره ان يشتم جيرانه من ان يثني عليهم . لقد سطرت في الماضي القريب عبارات مديح وددت لو اعطي لي ان امحوها ولو حكاً ببؤبؤ عيني .

غير ان الرجل الذي نحاول اليوم تكريمه عجمته عقود السنين ،

وسقت فولاذه نيران الحياة، فكان مصباحاً لم ينطفىء في الاعصار، وبارودة لم تغالط في المعركة .

لقد استأثرت بكفيا بالكثيرين من العظام ، فلا ندري اما دعينا اليها أنحن ننزل بكفيا ضيوفاً ام نؤمها حجاجاً .

ان لبنان الذي قلّت وثباته ، وطال سكونه ، لعظيم حين يخشع امام هذا القروي الفقير . ولكنه كان اعظم في أمسه حين قذف بهذا القروي الفقير فولاه شرف نيابته ، وقال له : كن من أسياد هذا الشعب لانك كنت من خيرة خدامه .

ونحن اليوم لن تصلح امورنا ما لم نختر الاسياد من الخدمة الصالحين .

في جنوب لبنان ألوف من مشردين يتضورون تحت افياء الشجر وينتظرون وصول الارغفة من بيروت . لماذا ؟

عشنا ثلاثين عاماً نقول لليهود : لن نقبلكم فاتحين في أرض ورثناها، واليوم نضرع اليهم ان اقبلونا لاجئين في ارض فقدناها . لماذا ، لماذا ؟

حين تعالت صرخات نساء العرب الثكالى، من اخرس المدافع العربية ؟ من اخرسها ؟ من جمد الجيوش في مراكزها ؟

من الذين اقاموا للمستعمرين عرشاً للجهل والخيانة والصغارة والعبودية ، وقدموا فلسطين أكلة دسمة لليهود ، وطافوا على اليهود باقداح ملئت بدماء ضحايا العرب ؟

من هم اساطين الخداع الذين يصقلون بالدم البريء كذبهم البراق؟ من هم ؟

اناس ولدوا اسياداً !

حينما ندعو النجار ليصلح نافذة الغرفة نتثبت من مقدرته ومن معداته الميكانيكية . ولكننا في الاقطار العربية ، لا نزال نسلم مقاليد امورنا ، واسباب موتنا وحياتنا لاناس لا نسألهم من انتم بل من كان جدكم الاعلى .

ان لبنان الوطن الذي نشتهي له ان يمسي طليقاً من الاغلال ، لن يصبح ما نشتهي ، ولن يكون نصيبه بافضل من نصيب جيرانه الا اذا تحرر من عبودية الماضي ، وافسح المجال لامثال المنذر كي يشقوا طريقهم الى الطليعة . انه لنظام فاسد فاسق مجرم فتاك بالقومية ذلك الذي يعزل عن الامة كفاءات الاحياء ليفرض عليها نزوات بيولوجية الاموات .

هذا الليل المدلهم الذي يحيق بنا سينجلي ان سهرناه يقظين . فلنصغ الى همسة الضياء قبل ان تخنقنا العتمة .

يتحدثون متألمين عن المرافق الاقتصادية التي أهملناها ، ولكن أثمن ما اهملنا من موارد لبنان هو الرجال الاكفاء . هذا هو النقد النادر الذي هدرناه ونبدده كل يوم .

ان المحتفى به يمثل كل ما يصبو اليه لبنان من فضائل سلبية وايجابية . هو رمز للاطائفية ، والعصامية ، واللبنانية الصميمة التي تبسط جناحها ، والثورة في وجه الغريب المغتصب ، ومثلث الطهارات قلبه ويده ولسانه .

هو ابن الفطرة الذي آخى المسلم والدرزي لانه مسيحي حقيقي . هو المسيحي الذي لم يحب اعداءه ، اذ ليس له اعداء .

وهو الذي مشاها فتى فقيراً من الكوخ الى السراي ، ثم عاد أدراجه من السراي الى الكوخ شيخاً فقيراً . وليس بينه وبين الذي يمشيها فقيراً الى السراي ، ثم يتهاداها غنياً الى القصر الا أمر واحد مشترك ، وهو ان كلاهما لا يدفع ضريبة الدخل !

كل رجل أوتي نعمة تسطير سيرته بانامله، وانها لاوتوبيوغرافية رائعة اختصرها شيخنا بلفظتين كبيرتين : ابراهيم منذر .

مهمة الحياة

كانت الدعوات تنهال علي من كل المدارس في حفلاتها السنوية . فلما انضممت الى الحزب السوري القومي الاجتماعي انقطعت هذه الدعوات الى ان ضربت النخوة في رأس مدرسة الاميركان في طرابلس فوجهت لي دعوة وحبلا طوله عدة اميال قيدتني به . فكان هذا الخطاب .

ملاحظة : – نهر البارد قريب من طرابلس وفيه مخيم للمشردين من فلسطين.

كانوا فيما مضى – وبعضهم لايزال حتى اليوم – يبدأ احدهم ، أي الخطيب خطبته بقوله انه سئل ان يلقي خطاباً فتردد بقبوله شاعراً بعجزه .

امّا انا فلا أريد ان اقول اني سئلت ان ألقي خطاباً . بالطبع لو لم يسألوني لما خطبت . ولا اقول اني ترددت بالقبول شاعراً بعجزي . فانا – بالعربي المفلطح – لا اشعر بالعجز . ولا اقول ترددت ، لاني لم اتردد بتاتاً ، فلقد صرت الى يوم اشتهي فيه ان أدعى الى القاء خطاب .

ولقد ذكرت أدارة هذه المدرسة في رسالة الدعوة ان أتفضل فلا ابحث في السياسة والاحزاب . فأجبتها ان مثل ذلك مثل من يدعو ضيفاً الى وليمة ويسأله ان لايأكل بوجله ولا يرمي بالملح والبهار في عيون الضيوف . ألا فلتطمئن الادارة ، وليطمئن الضيوف فاني اعرف آداب السلوك على المائدة فلن اكسر الصحون ولن اسرق الملاعق ، ولن اضع «زنود الست» في صحن الشورباء ، وفوق ذلك وأهم من كل هذا اني لن اغمس اللقمة خارج الصحن .

اسائل نفسي لِمَ هذا التحذير ؟ ما هذه الخشية ؟ ما هو سبب الخوف من دعوتي الى الحفلات ؟ وما هـذه الحجارة التي تتساقط حولي كل يوم ؟

الجواب بسيط وواضح . وهو انني كنت بالامس في سيران العيش ، والدنيا لهو واكل وشراب ودعاب ومباسطة . والناس كلهم صديق ، وعشير ونديم ، وزميل مثلي يتنزه عـلى رصيف الحياة . واليوم انا في جبهة الحياة .

جبهة الحياة هو موضوع حديثنا اليوم .

نحن الآن مجتمعون في حفلة تقليدية لنمنح وثائق لفئـة من فتياننا وفتياتنا الاحباء تشهد انهم تجاوزوا احدى مراحل الدراسة فمنهم من يثابر على تحصيل العلوم ، ومنهم من ينزل الى معترك العيش .

يتبادر الى الاذهان فوراً حقيقتان ، كلتاهما مؤلمة : الاولى ان في بلادنا الوفاً والوفاً من الفتيان والفتيات يملكون كل مؤهلات النجاح ، ولكن المجتمع لم يفسح لهم سبيل تحصيل العـلم ، فهم ايضاً المحرومون من فرصة الانتاج . والامة ، ونحن منها ، محرومة من الانتفاع من انتاجهم الكامل . والحقيقة الثانية ، وهي أبشع وأشد ايلاماً ، هي ان مصائب هذه البلاد جاءت على ايدي ابناء المدارس لا على ايدي الاميين .

اذاً فمسؤولية الذين يتمتعون بنعمة الدراسة ، تتضاعف على قدر الحرمان الذي ينزل بمن يبقون عن المدارس منفيين . وهذه المسؤولية تتضاعف من جديد حين نذكر ان الجيل المتعلم القديم

لم ينتج في مجموعه ،بالرغم من مروءة بعض افراده واخلاصهم، الا ما أنزل في البلاد الفساد والتدمير. اذاً ، وقد أفلس الجيل القديم، فما هي مسؤوليات الجيل الجديد؟

انها تختصر بعبارة واحدة وهي ان يفهموا وحدة الحياة. ليست الامة محمديين ومسيحيين . ما هي بمثقفين وغير مثقفين . ما هي سياسة واقتصاد . ولا مادة وروح . ما هي رجل وامرأة . ولا عسكريون ومدنيون . ولا هي منطقة تضاف الى منطقة . وكتلة تتعاون مع كتلة . الحياة هي جوهر واحد وكل ما ذكر ولم يذكر هو احد مظاهر الحياة .

متى وضحت هذه الحقيقة التي يقرها العلم ، وتفرضها المصلحة وتصقلها العاطفة ويجوهرها التاريخ ، ويقيمها برهاناً نجاح الامم التي آمنت بها ومارستها دستوراً مشى بهـــا الى القوة ، وتثبتها النكبات التي نزلت بالامة التي خرقت هذا الدستور - متى وضحت هذه الحقيقة الكبرى تجلت طريق كل فرد منا ، وجعلت من كل فتى وفتاة يحمل شهادة او لا يحمل ، مقاتلاً يعرف مكانه في جبهة الحياة وفي خط النار .

مكانـكم ايها الفتيان والفتيات في جبهة الحياة وفي خط النار . لأن الحياة كانت سخية عليـــكم حين وفرت لـكم اسلحة العلم ، ولأننا اليوم يجب ان نعيش في حالة طوارىء من عمل وتفكير .

اما الذين يؤثرون النزهات على كورنيش العيش ، ويؤثرون أنس المجالس ورفاهيتها فلتمش بهم خطاهم نحو نهر البارد ، لعلهم ينظرون الى خيام اللاجئين ويعتبرون . ان أول واجباتـكم هو العمل . فالجيل الذي تقدمكم جعل فضيلتين مزيفتين من نقيصتين

معيبتين - الاولى انه لا يشتغل بيديه. والثانية انه لا يقاتل بيديه. ولقد ذهبت به الأنانية فاغتصب مركزاً مفضلاً في المجتمع بسبب منطق جشع مغلوط ، كان من نتيجته قبول الناس بنظرية هدامة ، وهي ان الذين ظفروا بالشهادات هم ارفع منزلة في المجتمع الذي حرم سواهم ويسّر لهم هذه الشهادات . لذلك أمسى هذا الشعب فرقتين : « اساتذة - وغير اساتذة » . اني افهم ان ينادى معلم المدرسة او المحامي بيا استاذ ، اما سواهما فالاستاذ هو المواطن صاحب المكان واللقب المزيف الممتاز .

ان اول حاجاتنا هو العمل - العمل الجريء. والعمل الجريء يبدأ بالتفكير الجريء . بل ان الجرأة هي احد عناصر الفكر . فالذي يشد عقله الى عقال من قيود التقاليد خائفاً من التفلت منها ، لا يستطيع الانطلاق في فضاء الفكر الحر . كثيرون بيننا - واغلبيتهم اساتذة - من يرسلون الآراء رصاصات تطلق في الفضاء . رصاصات لا تفتك برذيلة ، بل كل فضيلتها انها تدوي موهمة الناس ان مطلقها من ابطال التحرر والتبصر . هؤلاء ما هم برجال فكر ، بل قبضايات آراء - ان نظام السير الذي ليس له من مزية الا انه يعرقل السير ويسبب الاصطدام تلو الاصطدام يجب ان ينسف من اساسه او يبدل . ونحن منذ اربعمائة سنة نستبدل شرطياً بشرطي ، خائفين ان نفعل الفعل الكبير ، وهذا الفعل الكبير يبدأ بالنطق الكبير ، وهو القول ان نظامنا ، وتفكيرنا ومحاولاتنا كلها مغلوطة من اساسها . ان السير فوضى ، والاصطدامات كثيرة ، واكثرنا اساتذة يزيدون البلبلة بالتزمير .

ان العمل الجريء يثب بكم حالاً من ملاجىء العيش الآمنة الى جبهة الحياة وخط النار . هناك ينتظركم الاضطهاد والحرمان. هناك تتجهم لكم الوجوه الباسمة . هناك تتساقط حولكم الحجارة وتتفجر القنابل. هناك ينتشر حولكم ضباب من غازات الاشاعات السامة. ولكن لا تخافوا - اذ انكم هناك ، واذ ذاك تستشعرون في نفوسكم ضياء من الايمان يطرد عنكم الخوف والوحشة .

قلت ان العمل هو اول الواجبات . عمل ماذا ؟ ولمن ؟ وما هو الحافز على العمل ؟ .

متى عرفنا الحافز فهمنا لماذا يجب ان نعمل ، وعرفنا لمن نعمل ، وما الذي يجب ان نعمل ؟ .

ان العلم يفسر سلوك الانسان ، والثقافة توجهه . ان الانسان حين يخلق نظاماً يحاول ان يبدع وسيلة تحميه . لقد جربنا هنا النظام الطائفي ، فتذابحنا طوائف ، وتباعدنا شيعاً . وجربنا النظام الفردي فكان الاقطاعي المستعبد الثري ، وكان الخانع الفقير زلمة الاقطاعي . وازدهر الفرد الذي تحفزه الى العمل كلمة « أنا » يغني نفسه على حساب سواه ، ويحتل مكاناً يقذف عنه مواطنه او مواطنيه ، ولا يهمه على جثة من يمشي ، ومصلحة من يدوس حتى ينفذ مآربه . ان النكبات التي حلت بنا ، ومظاهر الانحلال التي تغمرنا ، اكثر سببها اننا لم نفهم ان الحياة هي وحدة ، وان الولاء يجب ان يكون لا لمدينة ، ولا لمنطقة ، ولا لطائفة ، ولا لفرد ، بل يجب ان يكون للامة ، ومتى اعطينا هذا الولاء المطلق للامة اولاً واخيراً ، استقامت أمور

المدينة ، والطائفة ، والمنطقة ، والفرد ، ولم يعد بيننا ظالمون ومظلومون ، ولا ومفضلون ومضطهدون ، وقمنا بالعمل الكبير حين نستعيد الحلم الكبير .

هنا أقف خوفاً من ان اتهم نفسي بانني استاذ يزمر ، فيما يرى السير معرقلاً ، فاتوجه بالكلام البسيط الى الفتيان والفتيات الذين نحتفل بفوزهم فاختصر القول :

ان المجتمع الذي سهل لكم سبيل الثقافة فيما هو حرم سواكم ، له عليكم دين كبير يجب وفاؤه .

ان اكثرنا لا يشعر او لا يريد ان يشعر بوجود النار حتى تحرقه . اما انتم فعليكم ان تعترفوا بالمخاطر التي تحيق بنا وتهدد كياننا وتتجندوا حالاً لقتالها .

حذار ان تصبحوا اساتذة . ان الخطر والفساد والتفكك توحي الصراع ، والصراع يفرض النظام فيجب ان يكون لنا دستور واضح يقيد اعمالنا وينظمها ويضبطها . والنظام يفرض الانتظام .

ان العمل يعني الانتاج ، فلا تذهبن جهودكم في التهديم والبغض والعداء . يجب الا ننسى ان كل من يخالفنا في الرأي يبقى ابداً مواطننا ، له علينا واجب الود .

ان المواطن حين يذيب فرديته في مجتمعه لا يمحق شخصيته ولا يحقرها ، اذ ليس من سبيل الى تمجيد الفرد مثل وحدته في مجتمعه . هذه مناقب بشرت بها الاديان قبل ان اثبتت حقيقتها الوقائع .

حذار المسكرات. ان افتك انواع الخمور هو مسكرة الالفاظ. نحن نكاد نغرق في سيل من الكلمات، وهذا الطوفان الكلامي طغى على اعمالنا. لقد تسلح الجبن بالكلمات فكان اكبر مخترع للمعاذير. ان اكثر مواطنينا يعيشون في ترف الذل متكئين على مخدات ناعمة من معاذير، متأنقين بالفصاحة، يقولون ان هذه الامة انتهى امرها. اما انتم - والعلم حليفكم - فيجب ان تكون لكم الثقة بامتكم، ومتى وثقتم بامتكم وثقتم بنفوسكم، ومتى وثقتم بنفوسكم احترمتموها. ومتى احترمتموها منعتم الغير من تحقيرها واضطهادها.

ما هذه انفعالات اسجلها كلاماً. ولكنها حقائق دفعنا ثمنها بكرامتنا، وبخيراتنا. وقبَضها، عملة مصكوكة بدمائنا، بعض مواطنينا وبعض الاجانب العائشين بين ظهرانينا. فلقد عرفنا الاجانب في ايران، وفي البلدان التي تحترم نفسها، يعطون فيما هم يخضعون، اما هنا فانهم يتغطرسون فيما هم ينهبون.

متى فهمنا ان الحياة وحدة لا شذرات، ولا شظايا، نذرنا النفس لخدمة الكل، فاستقامت امور الاجزاء، ومن هذه الاجزاء كل فرد منا. اذ ذاك لا يعود عندنا شذرات ولا شظايا، بل حياة مفعمة بالخير خصبة، نحياها لاننا نفعل فيها.

لا ادري ان كنت اطلت الجلوس على هذه المائدة، وعساي لم اكسر صحنا ولم اغمس لقمة خارج الصحن، ولكني واثق واؤكد لكم ان جيوبي خالية من ملاعق مسروقة.

بنو بكر وبنو شيبان

أسطورة القبيلتين ، بكر وشيبان ، اخترعتها . هذا خطاب عمره ثلاثون سنة ، فقد ألقيته في المأدبة الوداعية لصفنا المتخرج من الجامعة الاميركية سنة ١٩٢٥ . تراني اثبته هنا لعاطفية الذكرى ، ام زهواً بنجاح مدرسي لم أقو بعد على التفلت من مجد ذكرياته ؟

بنو شيبان قبيلة شديدة البأس تفوق سائر القبـــائل بالمنعة والاقدام . ولكن بني بكر أشد منها بأساً وأصلب عوداً . فكان اذا اصطدمت القبيلتان خرج من بني شيبان ستة ابطال ولم يخرج الا بطل واحد من بني بكر ، واذا أقيم ميدان تسابق ستة فرسان من بني شيبان لكل فارس من بني بكر . واذا تبارى الأدباء في سوق عـكاظ ، جاء ستة شعراء من الشيبانيين وشاعر واحد من بني بكر . ونحن كم قد اكبرنا الحكمة التي نزلت على منظمي هذه الوليمة الذين يعرفون مقادير الرجال فاختاروا ستة خطباء من بني شيبان وهم المتخرجون القدامى ولم يختاروا إلا خطيباً واحداً من بني بكر .

رجل من المتخرجين الجدد لكل ستة من القدماء . قسمة عادلة ونسبة محفوظة . فنحن نفضُل الذين تقدمونا في كل شيء . لئن يكونوا قد انشأوا المجلات ، او جمعوا الاموال ، او اشغلوا عاليات المناصب او تمتعوا بالشهرة الواسعة ، فنحن في هـذا اعلى منهم شأناً . ذلك لأننا نملك الأحلام التي تذهّب الاماني ، وتزين

لنا المستقبل المجهول . انشاء مجلة ؟! ذلك أمر تافه . دع المتخرج الجديد يختلي بنفسه دقيقة واحدة فينشىء لك ، في لحظة ، مجلة تفوق المقتطف والهلال ، ويجمع لها الاشتراكات في ثانية . الاموال امر بسيط ! حدثوا اياً منا ، نحن المطلين على الحياة ، عن مقادير الاموال التي سيفوز بها تسمعوا العجب العجاب ، من صناديق ملؤها الذهب الوهاج ، واوتوموبيلات للخدم والحشم والاتباع والانصار ، وحدائق تجري من تحتها الانهار ، حتى اذا فرغ من وصف غناه وادار يده في جيبه لم يجد فيها من الاموال الا « محرمة » ممزقة يمسح بها عرق جبينه .

اما عن فخم القصور ، والعروس التي لا تدانيها في جمالها الست بدور ، فتلك امور شرحها يطول . الاحلام هي التي تملأ رأس المتخرج الجديد ، وهي التي تجعله في مقام اسمى من زميله القديم. الاحلام هي للواحد منا كتلك العصا لذلك الاعرابي الذي حين سئل عما في يده اجاب هذه عصاي اركزها لصلاتي ، واعدها لعداتي ، واسوق بها دابتي ، واعتمد عليها في مشيتي ، اقرع بها الابواب ، وألقى بها عقور الكلاب ، تنوب عن الرمح في الطعان ، وعن السيف في مجالدة الاقران ، ورثتها عن ابي ، وسأورثها ابني من بعدي ، وأهش بها على غنمي ، ولي فيها مآرب اخرى !.

على ان احلام الخريج الجديد ، وان تكن كعصا ذلك الاعرابي فليست منيلته كل الغايات . فان كلمة « الخريج » او « المتخرج » قد اختلف الناس في تعريفها ، والبعض يقول ان « الخريج » هو الذي « خرج » من عالم الدروس والتنقيب الى عالم الكد والتجريب .

والبعض يقول ان المتخرج هو الذي اصبح يكسب المال ولم تعد جيبه « متخرجة » . غير ان ابلغ تحديد هو الذي جادت به قريحة خطيبنا شحاده افندي شحاده فقد حدده بقوله الخريج هو من دفع خراجاً سنوياً لوقفية المتخرجين . فاذا آمنا بهذا التحديد فنحن بني بكر المتخرجين الجدد خاسرون اذ ان الاحلام لو دفعت لوقفية المتخرجين لحار سكرتيرها بما يفعل بها لأنها لا تدخل تحت باب « من » ولا تحت باب « إلى » .

يروى ان رجلاً فاضلاً من اتقياء الاسكندرية أخذ على نفسه ان يشيد معبداً فكان يجمع الاحسانات من الناس . فالتقى ذات يوم فتى يسأل عن الطريق الى حمام سنجاب . قال الرجل الفاضل انا ادلك . ثم مشى واياه ولكن بدلاً من ان يدله على حمام سنجاب اقتاده الى بيته ثم قال لا ادلك على الحمام ما لم تدفع اعانة لبناية معبد الاسكندرية قال الفتى فتش جيوبي فليس فيها فلس . قال هذا لا يعنيني فما أنت بخارج من هذا المكان من غير ان تدفع الاعانة . فخاف الفتى فقال حسناً خذ طربوشي وارهنه وخذ نصف قيمة رهنه اعانة للمعبد. فلما ان خرج الرجل من البيت ليرهن الطربوش خف الفتى الى الصندوق حيث اودعت الاعانات فاحتملها وفر بها هارباً . رجع الرجل الى البيت فما وجد الفتى ولا الاعانات فاخذ يطوف المدينة صائحاً :

يا من رأى رجلاً قد كان يسألني كيف السبيل الى حمام سنجاب

فلما اعياه التطواف ولم يجبه احد ، أطل فتى من شرفة منزله وصاح :

قل للذي اخذ الطربوش يرهنه ما ضره لو يضع قفلاً على الباب

ونحن جماعة المتخرجين الجدُد لو زرنا مكتب السكرتير العام للمتخرجين فالافضل له « ان يضع قفلاً على الباب » .

ولكن لنا ميزة على القدماء ـ على بني شيبـان ، هي اعظم الميزات . ذلك انهم تخرجوا يوم كان محيطهم متعطشاً لأمثالهم ، ونحن نتخرج اليوم ومحيطنا غاصٌ بامثالنا . يوم نزلتم الى معركة الحياة يا بني شيبان كانت المزاحمة غير حادة فكانت اللقمة سائغة . اما اليوم فالمزاحمة خطرة والعراك قاتل في بعض الاحيان .

فنحن اذاً لنا الميزة عليكم . فاللقمة التي نأكلها سنختطفهـا من فم الاسود فهي اذاً ألذ طعماً ، وقد قال الشاعر الاسكوتلندي Leigh Hunt في هذا المعنى :

« ألذ الحلويات تلك التي نسرقها على غفلة من عيـن الرقيب ، واطيب القبلات تلك التي نغتصبها اغتصاباً من خد الحبيب »

حذار اليوم يا شيبـــان منا بنو بكر عليـــكم حاملونا
ألمّا تعرفوا منــا ومنكم كتائب يطّعنَّ ويرتمينــا
فنحن الآكلون ، اذا طعمنا ، ونحن الشاربون اذا سقينــا
ونحن الدافعون ، اذا قبضنا ، لوقف جماعة المتخرجينــا
وفي اسبانيا شدنا قديـــاً من الاحلام « قعقوراً » مبينا
لئن ضاقت بنا كل المنــاحي وافلسنــا نصير معلمينــا

* * *

وداعاً جنة الدنيــا وانا على رغم لربعـــك تاركونا
على انا اذا اليوم انتـــثرنا نظلُّ على العهود محافظينــا

اذا الاشبال جالت في الفيافي هل التجوال ينسيها العرينا ؟
تخـــذنا حبها ديناً علينـــا ولولا الكفر سميناه دينـــا
ولو ان الخمور لنا اتيحت شربنا النخب كاسات مثينا
نهز لواءها في الارض فخراً وان متنا سيرفعهُ بنونا

***

اذيعوا في الملا نبأ مريعـاً بانا للمعـــارك خـارجونا
بنو بكر عليكم قد اغاروا بني شيبان فِرّوا هاربينا !

الفهرس

كتب للمؤلف

٭

لولا المحامي		١٩٢٤
قضي الأمر	(أتلفت)	١٩٢٥
نخب العدو		١٩٤٦
حفنة ريح		١٩٤٨
غابة الكافور		١٩٥٠
المنبوذ		١٩٥٣
ربيع الخريف		١٩٥٤
سيداتي سادتي		١٩٥٥

تحت الطبع :

مذكرات القاووقجي
غبار البحيرة
تَبلَّغوا وَبلِّغوا

• أطول ساعات العمر تلك التي تفصل بين "سيداتي سادتي" و "عاش لبنان".

سعيد تقي الدين

• الخطابة هي فن التسلط على عقول الناس.

أفلاطون

• الشاعر يولد، الخطيب يُصنع.

شيشرون

• إن الفم، إذ يتكلم، يفيض بما في القلب من خير.

انجيل متى

• حين يعوز الخطيب العمق يعوّض على سامعيه بالطول

مونتسكيو

• على الخطيب أن يعلّم، وأن يحرّك وأن يُبهج.

كنتليان

• يا بارك الله بالذي حين لا يملك شيئاً يقوله لا يتطوع الى إثبات ذلك بخطاب

جورج اليوت

• إن الحرب بيني وبين الخطباء تنتهي عادة بغير غالب ولا مغلوب فكلما كذب عليّ خطيب بالفصاحة كذبت عليه بالتصفيق.

[illegible]

الثمن ١٥٠ قرشاً

توزيع المكتب التجاري - بيروت

مطابع دار الكشاف - بيروت

